عودة الحاكم بأمر الله

مجموعة قصصية

د.محمد الملاح

أطلس للنشر والانتاج الاعلامى ش.م.م

رقم الايداع 2014/2096

عودة الحاكم بأمر اللّه

تقول الأساطير عن غَيبة الحاكم بأمر الله أن الغوغاء والرعاع والداعرات ظلوا يعتقدون أنه لا زال على قيد الحياة، فكانوا كثيرًا ما يلبسون ملابس تُشبه ملابسه، ويقول كل منهم: أنا الحاكم، يخرجون على الناس في الجبال ليأخذوا منهم الدنانير حتى ظهر رجل يُشبهه كثيرًا يدعونه "مشروم"، ولكنه بدا أطول قليلاً من الحاكم، ادَّعى أنه الحاكم، والتف حوله البعض، فأخذ يطالب الأغنياء بالمال زاعمًا أنه سيعيده إليهم بعد رجعته إلى مملكته وقصره، ثم استتر مدة وهو مستمر في دعواه حتى اعتقد كثير من الرعاع أنه الحاكم، وأنه يخفي نفسه لأمر لا يعلمه سواه، ثم نزح إلى البحيرة، ونزل لدى بعض البدو، وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب، ولما ذاع أمره قامت السلطات بمطاردته فتوارى عن الأنظار..

وفي أحد الأيام اجتمع الرعاع بعد أن جابوا المدينة شرقًا وغربًا وهم يرفعون أحدهم على الأكتاف مدعين أنه الحاكم الحقيقي، وقد جاءوا به ليعود إلى قصره ومملكته، فأحاطوا بالقصر، وسدوا الباب الرئيسي بعد أن ملئُوا الميدان، وصاحبهم جمع غفير من الناس راعهم ما شاهدوه من الشبه الكبير بين هذا الذي يحملونه والحاكم بأمر الله، وقام العامة والرعاع بمحاولة اقتحام القصر عندما اندهش الحرس لهذا الشبه، وانخدع بعضهم فظن أنه الحاكم بأمر الله فعلاً، فما كان من كبير الحرس إلا استدعاء قائد الشرطة الذي أجهز على هذه الجموع، وأفلح في إجلائها، وتفريقها بعيدًا عن القصر..

قصر الخليفة الذي أطلق عليه القصر الشرقي الكبير يتوسط المدينة، ويشغل منها مساحة كبيرة، وهو يعتبر مجموعة من القصور يتصل بها القصر الغربي الصغير، تحاط كلها بالأواوين من الجهات الأربع، ويتوسط كل من القصرين ساحة كبيرة في القلب منها نافورة كبيرة تنفث الماء طوال فصل الصيف، تطل عليها شبابيك وأفاريز غرف القصر الكبيرة..

ومنذ هذا اليوم ظل الرعاع يجوبون الشوارع، وينامون في الطرقات، ويهاجمون الحوانيت، ويحرقون الكنائس، ويرهبون المارة، ويسلبون منهم ما يحملونه من متاع، وقد يأخذون ما يركبونه من الحمير والبغال، ويعتدون على النساء والبنات فيشتبك معهم المارة تارة، أو يستعينون بالشرطة تارة أخرى، وظلوا على هذا الحال شهوراً كثيرة حتى ضج منهم الناس، وأصبحوا خطراً على البلاد والعباد، وكأنهم يعاقبونهم على اختفاء الحاكم بأمر الله..

خرج الحاكم كعادته في الليل للطواف بالجبل لاستقراء النجوم ورصدها، وتوغل في الجبل، وقصد الربى في صحراء الجب وهي خلوة منعزلة بناها خصيصًا لهذا الغرض، يتأمل النجوم مليًّا، ويحسب طالعها بعد أن تشاءم من الخروج هذه الليلة، صارح أمه التي كانت أثيرة عنده، وكانت تحبه كثيراً، وتخاف عليه بأنه يتوجس في طالعه من ظهور نجم

معين، ويخشى على أمه أن يصيبها مكروه من أخته، فأعطاها مفاتيح خزانة مليئة بالمال لتأخذها إلى قصرها، وتكون ذخيرة لها، فتضرعت إليه ألا يخرج هذه الليلة من جزعها عليه، فوعدها بذلك، ولبث الحاكم في قصره مؤرقًا يكاد الضجر أن يقتله، وبعد أن مضى ثلثي الليل، وأعياه الصبر قال لأمه:

- لا بد من الركوب وإلا خرجت روحي..

ركب في الحال حماره الأشهب، رافقته بطانته المعتادة، صاحب الشرطة يطوف كعادته كل ليلة بالقصر مع رجاله يضربون الطبول والأبواق الخفيفة حتى إذا خرج الحاكم تبعوه حتى أبواب المدينة، خرج الحاكم مع أتباعه إلى الجبل من درب السباع حتى إذا وصل إلى الجبل أمر رجاله، ورئيس الشرطة بالانسحاب إلى المدينة، ولم يبقَ معه سوى اثنين من الركابية، فسار بهما متوغلًا في شعاب الجبل..

باتت ست الملك ساهرة في قصرها الصغير المقابل لقصر الخلافة ترقب الخليفة الحاكم، فما أن علمت بخروجه حتى اتخذت أهبتها فسبقاه العبدان المكلفان إلى المكان المقصود، وقد صعد الحاكم رابية مرتفعة، وتأمل النجوم قليلاً فضرب كفًّا بكف وهو يقول:

- ظهرت يا مشئوم؟!

كان الحاكم قد توغل قليلاً في شعاب الجبل حين اعترضه بعض الأعراب يلتمسون إحسانًا، فأمر أحد الركابيين باصطحابهم إلى صاحب بيت المال، واصطحب الركابي الآخر في سيره حتى المكان الذي يقصده، وبينما كانت أولى خيوط الفجر تلوح في السماء خرج عليه العبدان المكلفان، وكانا قد اختبآ له في إحدى الطوابي التي كان يعتليها فوق الجبل، وانقضّا عليه، وطرحاه أرضًا وهو يصيح فيهما:

- ويلكما ماذا تريدان؟

لم يأبها لصيحاته، وأجهزا عليه، وقطعا ذراعيه، وشقا جوفه، وضربا قوائم الحمار بعد أن قتلا الركابي الصبي، ثم حملاه ملفوفًا في كساء إلى سيدهما ابن دواس الذي اصطحبهما إلى ست الملك، وسلمها الجثة فدفنتها في مجلسها في الحال، وأجزلت العطاء لابن دواس وعبديه، ثم دعت كبير الوزراء خطير الملك أبا الحسن عمار بن مجد وأخطرته بالواقعة، واستحلفته على الطاعة والكتمان، وأمرته باستدعاء ولي العهد عبد الرحمن بن إلياس من الشام على لسان الحاكم، فعاد عن طريق البحر، فبعثت ست الملك قائد الساحل ليستقبله في دمياط ثم سار به إلى تنيس، ثم قتله حسب الاتفاق..

قامت ست الملك بتوزيع آلاف الدنانير بين الأولياء، وأذاعت في الناس أن أخاها سيغيب سبعة أيام، وسيمدها بأوامره، واتخذت أهبتها لإخفاء

ما حدث، ودبرت أمر اختيار الخليفة الجديد، فأخذت البيعة للخليفة الطفل أبي الحسن على بن الحاكم بمعاونة ابن دواس، واستوثقت من طاعة قبيلة كتامة، وباقي زعماء الطوائف ثم استدارت لشركائها في التدبير؛ فاستدعت ابن دواس وهو يمني نفسه بأعظم مناصب رجال الدولة، بينما كان يسير في بعض أبْهاء القصر في الطريق إليها صاح نسيم صاحب الستر في صبيانه:

- هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه..

فانقضوا عليه، وقطعوه بسيوفهم، ثم قتلوا العبدين اللذين ارتكبا الجريمة في نفس اللحظة..

ولم تمضِ أشهر قلائل حتى دبرت ست الملك مقتل خطير الملك أبي الحسن، وبذهابه ذهب السر الرهيب معه إلى الأبد..

طال غياب الخليفة الحاكم تلك الليلة عما اعتاده أهل القصر، فبعثوا إليه من يطالعون الأمر، وخرج القضاة والأشراف والقواد إلى الجبل عندما غاب الحاكم ولم يعد في الصباح كعادته، بحثوا عنه حتى آخر النهار فلم يعثروا له على أثر، وعاودوا البحث ثلاثة أيام، فلم يعودوا بطائل، في اليوم الرابع توغلوا في شعاب المقطم حتى بلغوا المكان الذي كان يؤدي إليه، كثَّفوا التنقيب حتى عثروا على حماره الأشهب وقد قطعت ساقاه الأماميتان، وعليه سرجه ولجامه، وتتبعوا الأثر حتى وصلوا إلى

بركة القصب في آخر الطريق، نزلها بعضهم فعثروا فيها على ثيابه، وبها أثر الطعن فأيقنوا بقتله، ولكنهم لم يعثروا لجثته على أثر..

شاع مصرع الحاكم فأبدت ست الحسن الحزن عليه، وأقامت العزاء في القصر ثلاثة أيام، ثم استدعت الأعراب الذين لقوا الحاكم ليلة مقتله تستوضحهم عن هذه الليلة، ووعدتهم بالعفو والإحسان، فلما أقسموا بعدم علمهم بشيء أجهزت عليهم جميعًا..

اختفى الخليفة نهائيًّا، فلا يعرف أحد ممن عاصروه متى مات، وكيف مات، ولا أين جثته إلا أن عقيدة أتباعه ومؤيديه تؤمن بأنه دخل في غيبة كبرى، وأنه سيرجع بصفته المهدي المنتظر، ومن أتباعه حتى اليوم من ينفي عنه الموت، ويزعم أنه صعد إلى السماء ليعود إلى الأرض في آخر الزمان، ومنهم من يقول إنه توفي، ودفن ثم ظهر حيًّا، وأقبل إليه الناس يهرعون إليه ويقولون: هذا فلان قد عاد حيًّا، وأنه مسح على ظهر شيخ مريض فشفاه من علته، وشاهد ذلك خلق كثير، ثم غاب عنهم..

في العام التالي لاختفائه قبضت الشرطة على رجل من ثوار الصعيد الأعلى أقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله، وأظهر قطعة من رأس الحاكم، وقطعة من الفوطة التي كان يغطي بها رأسه، ولما مثل للتحقيق أمام قاضي القضاة سأله عن سبب قتله للخليفة، أجاب:

- غيرة لله وللإسلام..

ثم سأله القاضي:

- وكيف قتلته؟!

فأخرج من ثيابه سكينًا ضرب بها صدره فمات في الحال، وهو يقول:

- هكذا قتلته..

فأمر القاضي بقطع رأسه..

ألقت هذه الحادثة ظلالاً من الشك بين من تداولوا سرًّا من أهل القصر الأحاديث والدلائل المريبة حول اتهام أخته ست الملك بقتله أو التحريض على قتله..

يتبادل المسلمون السنة الاتهامات مع اليهود والنصارى لما أصابهم منه جميعًا، فلم يترك الحاكم بأمر الله طائفة دون أن يعاديها وينال منها..

يقول أتباعه ومؤيدوه:

- ظهرت لأمير المؤمنين عليه السلام فضائل لم يسمع بمثلها، ودلائل ظاهر بيان فضلها، ومعجزات بهرت الألباب، وآيات لا يشك فيها إلا أهل الزيغ والارتياب..

في آخر أيام الخليفة الحاكم بأمر الله، وبلا مقدمات اعترته حالة من التصوف، والزهد، والدروشة بعد أن أدخل بعض مستشاريه في روعه

الإيمان بمبدأ التناسخ والحلول فقام بإلغاء المواكب، والتشريفات، ودق الطبول، ثم ارتدى الثياب الخشنة بعد أن كان يرتدي الغالي منها، ويضع المجوهرات والنفائس من العقود والأساور، وأظهر التقوى والورع للتقرب من الشعب المصري المعروف بتأثره بتلك المظاهر، ثم أظهر الزهد في الحياة، ولكنه راح يتجسس على من حوله، وعلى حاشيته، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة من حياتهم ليعاقبهم بالقتل على التافه من الأمور حتى ارتعد منه الناس..

كانت مصر في النصف الثاني من خلافة الحاكم مهداً خصباً للدعاة السريين، وكأنهم علموا غرام الحاكم بالغموض والخفاء، فازدهرت هذه الدعوات التي كان يشجعها ويرعاها حتى تطورت في آخر عهده إلى تأليهه، فأطلقوا عليه قائم الزمان، وناطق النطقاء، ويعتبر مذهب الإمامة هو روح الدعوة الفاطمية التي خلفت كثيراً من النظم والتقاليد، وتعديل الأحكام، والشعائر، فعقدت مجالس الدعاية الفاطمية في قصر الخلافة، أو الجامع الأزهر، ولكن مذهب الإمامة في عصر الحاكم تسربل بالقدسية الرهيبة، فاستحالت الدعوة الفاطمية إلى فلسفة دخلت بها في منعطف الإلحاد..

تشبه نظرية الإمامة الفاطمية التي راجت في عصر الحاكم نظرية حق الملوك الإلهي في أوروبا العصور الوسطى، فالملوك هم نواب الله على

الأرض، ولهم على الناس حق الطاعة العمياء، رغباتهم لا ترد، ولا يسألون إلا إمام الله، وهو ما أدى إلى قيام الثورات العنيفة..

قدم إلى مصر في هذا التوقيت بعض أتباع المذهب الإسماعيلي الذين تأثروا بهذه المظاهر؛ فادعى أحدهم وهو حسين بن حيدرة الفرغاني حلول الإله في الخليفة، فهو تجسيد بشري للإله، وأسقط اسم الله، وأنكر النبوة والتنزيل، فلما سمع به الخليفة قربه إليه، ودعاه إلى الخروج معه في مواكبه؛ هجم عليه رجل من الأتراك في أحد المواكب وقتله، فثارت الفتنة، ونهبت دار التركي، وغلقت أبواب القاهرة، وقتل جماعة من أتباع الخليفة، ثم قبض على التركي، وجيء به إلى الخليفة الذي أمر بحبسه، ثم قتله بعد ذلك..

خرج على الناس حمزة الزوزني، واشتهر باللباد، دعا أيضًا إلى ألوهية الحاكم، وشرح دعواه في كتب ورسائل، كل ما عرف عن شخصه أنه فارسي من مقاطعة زوزن، اشتغل فيها عاملاً في صناعة اللباد، وفد إلى القاهرة، وانتظم بين الدعاة الذين غصت بهم العاصمة في ذلك الوقت..

بدأ دعوته سرًّا، ثم جهر بعبادة الحاكم، ونادى بتناسخ الأديان والشرائع وبالحلول، وأن الحاكم ليس بشرًا؛ ولكنه رمز حل فيه الإله، واتخذ مسجد ريدان أو مسجد بكر بالقرب من باب النصر مقرًّا لدعوته، اجتمع إليه غلاة الشيعة الإسماعيلية، وتلقب بهادي المستجيبين، ولقب

الحاكم بقائم الزمان، بث دعاته في أنحاء مصر والشام، رخص في أحكام الشريعة فأسقط التكاليف من صلاة، وصوم، وأباح المحارم من النساء، ذاع أمره فاستجاب له خلق كثير، شجعه الحاكم بزياراته المتكررة كلما خرج للطواف ليلاً والانفراد به، وطول ساعات المناجاة بينهما، وعززه بالحرس والسلاح..

اتخذ حمزة بطانة من الدعاة والرسل، لقب أحدهم وهو إسماعيل التميمي بسفير القدرة، وكلفه بأخذ البيعة من الرؤساء والكبراء للحاكم بصفته الجديدة، فاضطر الكثير منهم إلى التظاهر بالقبول خوفًا من الغدر والانتقام، واشتهر حسن الفرغاني الذي عرف بالأخرم، ومحمد الدرزي الذي عرف بأنوشتكين البخاري من أصل تركي كدعاة يعملون لحساب حمزة اللباد..

ادعى أنوشتكين البخاري أن الحاكم بأمر الله هو خالق العالم، ومجسدًا للإله، وجعل له كتابًا كالقرآن سماه الدستور؛ فذهب إليه الخليفة لما سمع به، وداوم على زيارته والإعجاب به، قربه وجعله أعلى رجال الدولة، والمتحكم بالوزراء والقادة..

استشاط الدعاة في مزاعمهم وخرافاتهم التي وجدت الحماية من الخليفة الحاكم، وقابلها الناس بالسخط الشديد حتى سنحت فرصة للانفجار عندما دخل أتباع حمزة الجامع العتيق، وهو جامع عمرو على

خيولهم وبغالهم بعد أن احتشد الناس ينتظرون قاضي القضاة الذي أعدوا منصة لجلوسه، فتقدم ثلاثة منهم واحتلوا المنصة، وهم يلقون أصول دعوتهم في الألوهية على الناس، لم يلبث أن دخل القاضي بموكبه حتى جلس فوق منصته؛ تقدم إليه أحد الثلاثة برقعة من إمامهم حمزة أولها:

-"بسم الحاكم اللّه الرحمن الرحيم"..

وفيها يأمره بالاعتراف بألوهية الحاكم وإذاعة ذلك على الناس، فاحتج القاضي، وتوعدهم بعرض الأمر على مولاه، فشتمه الدعاة، وثار الناس، ووثبوا عليهم، وقتلوهم في الحال، ثم التفتوا إلى باقي الملاحدة فمزقوهم بعد قتلهم أشنع قتلة، وتتبعوا أصحاب حمزة خارج المسجد قتلاً وتمزيقًا.

عندما علم الحاكم بالحادثة أمر بالقبض على قتلة الملاحدة، فجاءوا بأربعين رجلًا منهم، أمر الخليفة بقتلهم جميعًا، اشتد سخط الناس الذين انضم إليهم الجنود الترك، وأحاطوا بدار أنوشتكين البخاري (الدرزي) الذي قاتلهم مع أصحابه من الداخل حتى تمكن من الهرب إلى قصر الحاكم، فهدم الجند داره بعد أن نهبوا ما فيه، وقتلوا عددًا لا بأس به من أصحابه، ولما علموا بوجود الدرزي في القصر طالبوا الخليفة بتسليمه باعتباره تركيًّا مثلهم، فوعدهم أولاً، ولما عادوا في اليوم التالي بادرهم

بأنه قتل، فاتجهوا غاضبين إلى مسجد ريدان حيث يجلس حمزة، فلم يعثروا له على أثر..

ادعى البعض من القريبين من القصر أنه لم يقتل؛ ولكنه مكث في القصر عدة أيام حتى هدأت العاصفة، ثم دبر له الخليفة الفرار إلى الشام مع قَدْر من المال لنشر الدعوة، أما حمزة فلم يعرف مصيره إن كان قد قتل أو فرّ إلى الشام كالدرزي، أو مكث في القاهرة لينشر دعوته سرًّا..

أرسل الحاكم عبيده للهجوم على البيوت والحمامات انتقامًا من ثورة الناس، يسرقون الرجال، ويعرون النساء في الشوارع، ويحرقون البيوت، فانشق بعض الجنود ليتضامنوا مع الناس ضد عبيد الخليفة، ودارت معارك عنيفة بين الطرفين، لم تتوقف إلا عند سماع أخبار اختفاء الخليفة كعادته في هذه الظروف..

ظهر الأخرم بدعوته فاستدعاه الحاكم، وخلع عليه، وسيره في موكبه، وذات يوم وَثَبَ عليه رجل من متعصبي السنة فقتله، وتفرق أصحابه، وانهارت دعوته، ونهبت داره، غضب الحاكم، وأمر بإعدام القاتل، ودفن الأخرم في حفل رسمي، وحمل أهل السنة صاحبهم، ودفنوه مكرمًا، وبعد أيام هرع الناس لزيارة قبره ليفاجأوا بنبشه، واختفاء جثته..

ولم يكن الحاكم هو الراعي والمعين فقط؛ بل ظهر من كتابات الدعاة أنه كان الموجه والمشرف على هذه الدعوة، ويبدو أنه استجلبهم لدعوته

هـذه، ولـم يتوقـع ثـورة النـاس علـى هـذه الـدعوة التـي كانـت ثـورة عليـه شخصـيًّا؛ فثـار غضـبًا علـى جنـده الـذين خشـي مـن معـاقبتهم خشـية الانقـلاب عليـه، أو قتلـه؛ فوضـع نقمتـه في النـاس، واصـطفى منهم أهـل الفسطاط الذين توعدهم بالتنكيل وتخريب مدينتهم..

مهـد الحـاكم بـأمر الله أولاً بالدعايـة في الرقـاع التهديديـة، والوعيـد بالويل، والثبور، وعظائم الأمور إذا لـم يعتنـق المصـريون الـدعوة الجديـدة، ولكن المصريين واجهـوا هـذه الرقـاع برقـاع قاذفـة في حـق الحـاكم بتكفيـره ونعته بأقذع القبائح؛ فثارت نفسه عليهم، وتوعدهم..

أمر الناس بالقيام عند سماع اسمه في الخطب إذا كانوا جلوسًـا، وإذا كانوا وقوفًا سجدوا، وإذا صادفهم الحاكم في طريقه يحيونه قائلين:

-"يا محيي، يا مميت، يا واحد، يا أحد"..

خاف كثير مـن العامـة، والرعـاع فـدخلوا في دعوتـه، وزاد الزحـام حتـى مات منهم الكثير لما كان يغدق عليهم من الطعام والأموال..

اسـتدعى الحـاكم العرفـاء والقـادة، واتفـق معهـم علـى خطـة التنكيـل بمصـر وأهلهـا، البلـد التـي آوتـه، وأهلـه الأحيـاء منهم والأمـوات، والشـعب الـذي اسـتقبلهم، ووثـق بهـم، وأسـلمهم قيـاده، فعهـد إلـى العبيـد بابتـداء الهجـوم بالإغـارة علـى الأحيـاء في عصـابات تنهـب الحوانيـت والمـارة،

ويخطفون النساء، والشرطة لا تُحرِّك ساكنًا، والخليفة الحاكم لا يستجيب للشكايات والتضرعات..

هاجم العبيد والترك والمغاربة البلاد من كل صوب، وأضرموا النار في أطرافها؛ فهب أهل مصر للدفاع عن أنفسهم وأملاكهم فأضرمت المعارك ثلاثة أيام، وألسنة اللهب تتعالى في عَنان السماء من المدينة القديمة، والحاكم يراقب تدبيره كل يوم من فوق الجبل، ويتساءل في بلاهة:

- ما هذا؟
- إن العبيد يحرقون مصر، وينهبونها..

فيظهر الخليفة الأسف والجزع لما يحدث ويقول:

- من أمرهم بهذا لعنهم الله؟!

كثر معارضوه الذين أظهروا استياءهم بوسائل شتى حتى علق أهالي الفسطاط دُمية على هيئة امرأة بالحجم الطبيعي في طريق يمر منه الخليفة في طوافه سخرية منه، وفي يدها ورقة تسب الخليفة، فلما رآها الخليفة قرأ الورقة ثم أمر بقتل الدمية التي اتضح أنها ليست امرأة حقيقية، فأمر عبيده بحرق المدينة بعد مداهمتها، والاعتداء على البيوت بالنهب والسرقة، واغتصاب النساء حتى تعاطف الجنود الأتراك من عناصر جيشه مع الناس من كثرة استغاثتهم، ونزلوا إلى شوارع المدينة

للدفاع عنهم ورد عبيد الخليفة المتحفزين، ومن أعلى مكان في القصر جلس الخليفة يراقب ما يحدث..

بينما يشجع الأتراك من جيشه، يرسل مزيداً من العبيد المدججين بالسلاح حتى تلاشى ثلثا المدينة، وعندها أرسل عياد الصقلبي أحد قادته لمعاينة ما حدث في الفسطاط عاد إليه معلقًا:

- لو دخل ملك الروم هذه المدينة لجزع مما حدث لأهلها..

غضب منه الخليفة غضبًا شديداً، وأمر بقتله في الحال..

زاد الإضراب والاضطراب لليوم الرابع فتجمهر الكتاب والأشراف والكبراء في المساجد، رفعوا المصاحف، وضجوا بالبكاء والدعاء حتى كف الأتراك والمغاربة عن الاعتداء، بينما استمر العبيد في عدوانهم والأهالي يدفعونهم بكل ما يستطيعون، طلب الأتراك والمغاربة من الحاكم أن يأمر بوقف الاعتداء على أهل مصر وأموالهم؛ فإن بينهم وبين المصريين مصاهرة وقرابة، ولهم أملاكهم في مصر، كما يشتركون مع المصريين في الأعمال والتجارة..

تظاهر الحاكم بالاستجابة لمطالبهم، في الوقت الذي أوعز لعبيده بالاستمرار في المعارك، وأن يعتدوا أيضًا على الترك والمغاربة بجانب المصريين، فالتهبت المعارك بين الفريقين، ولزم الترك والمغاربة الدفاع عن

أهل مصر، وفرقوا العبيد بعد أن نكلوا بهم، ولم يجدوا بُدًّا من تهديد الحاكم باقتحام القاهرة وحرقها إذا لم يتوقف هو وعبيده، فأذعن للتهديد، وكف عبيده، واعتذر للأشراف والزعماء، وأصدر أمانًا لأهل مصر..

وراحت المدينة تنعي أهلها ومبانيها وشوارعها وأسواقها بعد سبي النساء والاعتداء عليهن، فانتحر منهن الكثيرات خشية العار، وتتبع المصريون زوجاتهم وبناتهم وأمهاتهم وافتدوهن من الخاطفين..

طال فساد الخليفة كل شيء، وامتد أذاه لكل إنسان حتى أخته "ست الملك" التي كانت تكبره بسنوات، وكان أبوها العزيز بالله يستشيرها في كثير من الأمور لتميزها بالعقل والحزم وحسن التدبير، استمرت على نفوذها في القصر بداية عهد أخيها الحاكم تدبر الشئون وتوجهها وتسهر على سلامته وسلامة ملكه، وتجامله بالهدايا الثمينة، ولكنه عندما استأثر بالسلطة واندفع في تيار العنف والإغراق في القتل اعترضته، وأسدت إليه النصح، وحذرته من العواقب، فأصبح يغضب لتدخلها ويردها، بل تمادى وأغلظ لها القول، فاكتفت بالسكوت والمراقبة عن بُعد، وقد أمعن في معاملتها بجفاء كما كان مع الرعية والأعوان والأتباع، فشدد عليها المراقبة ليوهم الناس بسوء سلوكها وفضائحها الغرامية التي كانت في خياله فقط؛ فيتهمها بتناوب العشاق حتى هددها بإنفاذ القوابل

لاستبرائها وهي تخطو نحو الكهولة بعد أن جاوزت الخمسين من عمرها، وهي الأميرة بنت الحسب والنسب، وكلما قاومت دعاواه الفاسدة اتهمها في شرفها، وكاد يدس لها ويقتلها بعد أن هددها مرارًا بقوله:

قد سمعت أنكم تجمعون الجموع، وتدخل إليكم الرجال، والله لأقتلنكم أجمعين، واتهمها بأنها حامل..

لم تكن ست الملك من الخفة العقلية التي تجعلها تفكر في سفالاته وقذفه إياها، ولكنها خافت مما سيؤدي إليه تطرفه وإغراقه من الاضطراب والفوضى، ليس على الملك والدولة فقط، بل على الدين كله، فوقع اختيارها على سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة المغربية، وهي القبيلة التي كانت أوفر عصبية وبأسًا وإكرامًا بما قدمته من خدمات للدولة، وهي أيضًا التي فقدت كل هذه الميزات على يد الحاكم، فعاش الحسين بعيدًا عن القصر وعن الحاكم، وتجنب الحفلات، والمواكب خوفًا من غدر الحاكم، وكلما راجعه الحاكم ازداد إباءً وتمسكًا..

ذهبت إليه وابتدرته قائلة:

- قد علمت ما فعل أخي، وما صدر منه بسفك الدماء وقتل الأولياء ووجهاء الدولة بغير سبب، وملاحقة الناس، وتعذيب الأمة، وقد عزم على قتلك وقتلي، فهذه آفة ولاية الخلفاء في

سن الطفولة، تركه أبوه طفلاً ذا أوصياء، وقد علمت دسائس القصور، وسياسة الحريم، أحاطت به الدسائس في سن الخطر الذي لم يكن من الصغر بحيث يجهل ما حوله، ولم يكن من النضوج بحيث يتدبر فيما يعلمه، فكل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع، وتوسوس له بالريبة والتساؤل، ومع كل هذا فقد نشأ في بيئة التنجيم فأصغى إلى أحاديث الباطن والظاهر، وأسرار الغيب فأصيب بآفة الهوس بالأسرار والغموض، فكثر سهره، وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم، وأجهز على الباقي من عقله الوزراء والمقربون الذين يلتمسون في نفس الخليفة الصبي مواطن الضعف فيستغلونها لمصالحهم كما فعل الدرزي، والأخرم عندما وسوسوا له بمذهب الحلول، وخاطبوه كأحد الأرباب، وأخي ليس من المسرفين في الشهوات والنزوات، ولا يعاقر الخمر ولا يستطيبها، ولم يشرب النبيذ إلا بإلحاح طبيبه الذي خطر له أن يعالجه بإدخال السرور إلى نفسه في مجالس الغناء مع يسير من الشراب..

صارحته ست الملك بعزمها على قتل الخليفة، موضحة له ما ستؤول إليه الأمور لو ظل الأمر على ما هو عليه، فبسطت له خطتها بعد قتل الخليفة بتولية ولده، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة، وصاحب شئونها

العليا، وقطعت على نفسها العهود والمواثيق مقنعة إياه بأن لا يعلم أحد شيئًا عن هذا الاتفاق، فاستجاب الحسين لكلامها، وعهد بالتنفيذ إلى عبدين من عبيده، فخلعت عليهما وزودتهما بالمال والخيل وسكينين ماضيين على أن يكون التنفيذ مساء اليوم التالي عند خروج الحاكم ليلاً إلى المقطم منفردًا بعد أن يتوغل فوقه..

انتشرت الفوضى في ربوع البلاد بخروج الرعاع والمشاغبين إلى الشوارع بعد أن أفلح بعض دعاة الحاكم بأمر الله في استنفارهم بالمال وقطع اللحم وأكياس السكر، فعانى منهم الآمنون من الأهالي والتجار الذين لم يجدوا بُدًّا من ردعهم وقتلهم أحيانًا إذا ما تجاوزوا وهاجموا الحوانيت، وسلبوا البضائع التي أحل سرقتها هؤلاء الدعاة المأجورون من الفرنجة واليهود في بيت المقدس بعد أن عجزت الشرطة عن احتواء الأعداد المتزايدة منهم، وقد جاءوا بهم من كل مكان حتى من خارج القطر، كما شارك فيها المواخير والعاهرات، وهو ما جعل قائد الشرطة والخليفة الجديد يعجل بنزول عناصر من الجيش لاحتواء الرعاع والمواخير والقبض عليهم، وإنقاذ الأهالي منهم حتى لا يتقاتل أبناء البلد الواحد..

وفي حانوت صالح الإسكافي أحد المتضررين من الحاكم جلس السمار من أولاد البلد والأعيان مسلمين ونصارى ويهود بعد دخول الليل على أضواء الشموع يتبادلون أطراف الحديث الذي عادة ما يتناول ما يجري في البلاد وخارجها من أحداث تساءل أحدهم:

- متى ستنتهي هذه الفوضى؟ ومن الذي يستطيع ردع هؤلاء الرعاع والداعرات وردهم إلى جحورهم ومواخيرهم؟!
- يبدو أن الخليفة الجديد يروقه ذلك كي يحتج لدى المشايخ عندما يثور عليه الناس من قلة الغلة وندرة الأعمال..
- فعلاً والله، وما يدل على ذلك عدم تخلص الخليفة الجديد من هؤلاء الدعاة الذين يؤلبون الرعاع، والغوغاء، والمواخير، ويغرونهم بالمال والطعام..
- لعل الحاكم بأمر الله يعود كما يزعم دعاته الدراويش، ويقنعون به رعاعهم وغوغاءهم ومواخيرهم..
- وماذا أخذوا من الحاكم وأيام الحاكم إلا الاستبداد والاستهزاء واللعب بالعقول..
- ألا تذكرون أنه حرم على الناس كلمة سيدنا أو مولانا لأي أحد إلا له شخصيًّا؟!
- وحرم ما أحله الله، وهو الحاكم بأمر الله - كما يدعي- كأكل الملوخية وزراعتها بحجة أن معاوية بن أبي سفيان كان يأكلها كثيرًا، كما حرم الجرجير الذي كانت تحبه السيدة عائشة، ومنع بيع العنب والعسل بحجة تحريم الخمر الذي يصنع منهما، كما حرم أكل وصيد السمك الأملس بلا قشور، وحرم لعب الشطرنج، وأمر بقتل الكلاب حتى كادت تخلو منها القاهرة..

- والأدهى من ذلك إغلاق الدكاكين والأسواق نهارًا وفتحها ليلاً..
- وعدم خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس حتى للبيع أو الشراء؛ فخلت الطرق من المارة..
- لقد خرج علينا يومًا بمرسوم يأمر فيه بتحبير أوجه النساء عند خروجهن من بيوتهن، ثم تمادى فمنع خروجهن من البيوت إلى الحمامات وغيرها أو الصعود فوق أسطح المنازل، وكانت نساء ذلك العهد يخرجن إلى الحمام للاستحمام والتطهر والزينة خاصة يوم العرس..
- وقع العنت على النساء اللاتي كن بلا رجل يقضي لهن حوائجهن، أو العجائز المقعدات، وعندما تجاوز قليلًا سمح بخروج السيدات إلى الحج، والإماء المعروضات للبيع، وغسالات الموتى، والأرامل اللاتي يبعن الغزول..
- ويا ليت الأمر اقتصر على النساء، فما لبث أن اشتكى التجار قلة البيع، فأمرهم بالتجوال على البيوت بشرط عدم خروج النساء إلى التجار، وتكتفي بمد ذراع طويلة تنتهي بما يشبه الملاقط لتناول ما تريده من البائع..
- فور منع النساء من الحمامات سمع أثناء طوافه على حماره مخالفة بعض النساء لهذه الأوامر، وذهبن إلى الحمام خاصة من كانت منهن عروسًا ليس لها إلا الذهاب إلى الحمام للزينة

والتجمل للزوج قبل الانتقال إلى بيتها الجديد؛ فما كان منه إلا أن أمر بإغلاق الحمام عليهن حتى الموت مختنقات..

- انفصال الحاكم بأمر الله عن الواقع جعله يتوهم أن ذلك من دواعي أمن البلاد، يركب حماره كل يوم ليتأكد من أن القائمين على الأوامر ينفذونها بكل قسوة..
- يمشي فوق حماره، ويسير السياف بين يديه ليتلقى الأمر بقتل من أشار إليه الخليفة في الحال، ولم تسلم منه بطانته؛ فقتل كثيرًا من الموظفين والوزراء والقضاة..
- كان يفترض عقوبات عاجلة أثناء طوافه، فالسرقة عقوبتها الفورية الشنق فورًا وإنكار "الدَّين" عقوبته الشنق على باب البيت..
- عقوبة الغش التجاري مواقعة التاجر الذي يقترف هذه الجريمة باللواط علنًا أمام الناس، واستعان على ذلك باصطحاب عبده الأسود مسعود أثناء تجواله لتوقيع العقوبة في السوق وفي الحال..
- في يوم من الأيام أمر بعض الأطفال بالقفز من مكان عالٍ في بِركة بالقصر فمات منهم ثلاثون طفلًا عندما سقطوا على حافة البركة الصلبة..
- حرم الغناء خاصة على النساء..
- أحرق أحياء كاملة بالقاهرة..

- أمر ببناء المدارس، وعيَّن لها العلماء، وأجرى لهم الأرزاق، ثم أمر بقتلهم، وهدم المدارس..
- انتاب الناس الرعب والفزع في إحدى الليالي عندما خرج المنادي ليعلن مقتل أعداد من الخدم والصقالبة والكتاب بعد قطع أذرعهم بالسواطير، كما أمر بقطع رقاب تجار قاموا ببيع الزبيب والسمك..
- نزح كثير من السكان خارج القاهرة، وأغلق التجار حوانيتهم خوفًا من العقوبات والوشايات..

انبرى أحد الذميين:

- في أول خلافته أفرد لليهود حارة زويلة، وأمرهم أن يسكنوا بها، ولا يخالطوا المسلمين في حاراتهم، ثم أمرهم بعد ذلك بالدخول في الإسلام؛ فخافوا منه، وأسلموا جميعًا بما يخالف القرآن: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾..

ثم عاد فأذن لهم بالعودة إلى دينهم فارتد منهم في يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودي بعد أن أمر بهدم كنائسهم، وبعودتهم إلى دينهم أعاد بناءها كما كانت عليه أولاً..

- أمر اليهود بلبس السواد مثل أعدائه العباسيين..
- اضطر اليهود إلى ارتداء أجراس، وحملوا صورة خشبية للعجل في الأماكن العامة، وعندما سمع أنهم يسخرون منه قام بحرق حيهم بالكامل..
- لم يسلم المسيحيون من هذه الشناعات رغم أن أمه كانت مسيحية، أمرهم ذات يوم فجأة باعتناق الإسلام وإلا قتلهم جميعًا بما يخالف القرآن..
- ثم عاد إلى رشده فأذن لمن أسلم كرهًا العودة إلى دينه، فعاد أغلبهم..
- في أول عهده بالخلافة احتفل النصارى بالغطاس بشكل كبير ومهيب، ولما كانت ليلة الشعانين منعهم من تزيين كنائسهم على عادتهم من قبل؛ فقبض على جماعة منهم، وأمر بإحضار ما هو معلق على الكنائس، وأثبته في دواوين السلطان، ثم كتب إلى سائر العمال بذلك، وأحرق صلبانًا كثيرة على باب الجامع..
- أمر بهدم كنائس النصارى ومعابد اليهود وتحويلها إلى مساجد، ثم يعود لهدم المسجد وإعادته إلى ما كان عليه..
- أمر المسيحيين بتعليق ما يثبت ديانتهم ليتميزوا عن المسلمين، وكانت هذه العلامات عبارة عن صلبان ثقيلة لا يمكنهم وضعها أو التخفف منها حتى عند دخول الحمام..

- ثم خفف عنهم بتعليق الصلبان الخشب، ولبس العمائم، والطيالسة السود ما عدا الأحبار منهم، ومنعهم أن يركبوا خيلًا؛ بل حميرًا وبغالاً سروجها سوداء بسيور، ولجم غير محلاه، ويشدون الزنانير على أوساطهم، ولا يستعملون مسلمًا في خدمتهم، ولا يشترون عبدًا، ولا أمة، وأذن للناس في تنفيذ ذلك بأنفسهم دون الرجوع إلى القضاء أو الشرطة..
- كتب إلى عامله في القدس أحمد بن يعقوب الداعي لهدم كنيسة القيامة، وأن يأمر الناس بنهبها حتى يندرس أثرها، فقام أحمد على أثر هذه الأوامر بالتنفيذ؛ فكانت من عوامل إثارة الحروب الصليبية ضد كل بلاد الإسلام..
- حتى أهل السنة لم يسلموا منه..
- كان الخليفة شيعيًّا رافضيًّا مبغضًا لأهل السنة، فانتهك حقوقهم بشكل صارخ، أمر بكتابة سباب الصحابة؛ أبي بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعمرو بن العاص، ومعاوية، وتعليقها على جدران المساجد، وفوق الأضرحة، والقبور، وأمر الأئمة بسبهم على المنابر في الخطب، والصلوات..
- عاقب من رفض ذلك أو أظهر تعاطفًا بالتشهير والصلب..

- منع صلاة الضحى لأن الشيعة لا يصلونها، كما منع صلاة التراويح، وغيّر مواقيت الصلاة؛ فأقاموا الظهر في السابعة، والعصر في التاسعة حسب المزولة العربية، وغير كلام الآذان، ثم أمر بإلغاء ذلك..
- حاول الخليفة تحويل الحج من مكة إلى مصر؛ بسرقة جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخليفتين أبي بكر وعمر، ونقلهم إلى مصر، وبناء مشهد لهم يُطاف به بدلًا من الكعبة، ولكنه فشل بعد افتضاح أمره..
- قطع الخليفة رقبة القاضي حسين بن النعمان، وأمر بحرق جثته، كما قطع رقاب مائة من الحاشية وصلبهم، وخمسين من الركابية الذين يحملون غاشية الخليفة في المواكب..
- أمر بهدم جامع عمرو بن العاص بالأسكندرية..
- عندما تولى الخلافة أظهر العدل بين الرعية، وسار في الناس سيرة حسنة رغم صغر سنه الذي تجاوز ١١ عامًا بقليل..

جاءه برجوان كولي للعهد أعلى شجرة الجميز وهو يلهو مع أترابه في الدار فنادى عليه:

- انزل ويحك، الله الله فينا وفيك..

فلما نزل وضع العمامة بالجوهر فوق رأسه، وقال:

- السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثم أخرجه إلى الناس، وسلموا عليه بالخلافة..

مرض العزيز بالله والد الحاكم مرض الموت في بلبيس خارج القاهرة، سار الحاكم بجثته في قبة على ناقة بين يديه إلى القاهرة عاصمة ملكه ظهر يوم الثلاثاء على رأس موكب ضخم تظلله أبهة الخلافة، تكتنفه رهبة الموت، بين يديه الجنود والرايات مع سائر أهل الدولة وقد ارتدى درعًا مصمتًا، وعلى رأسه عمامة مرصعة بالجوهر، وتقلد سيفًا، وبيده الأخرى رمح..

وصل الركب الحزين إلى القاهرة يوم الخميس، دخلوا القصر قبل صلاة المغرب، أمر بتجهيز جثة أبيه على عجل، بعد دفن أبيه في اليوم التالي نصبوا للخليفة الجديد سريرًا من الذهب، عليه مرتبة مذهبة تتصدر الإيوان الكبير للقصر، مشوا بين يديه حتى استوى على سريره، سلم عليه الجميع، وأقروا له بالإمامة واللقب الذي اختير له "الحاكم بأمر الله"..

شغف الحاكم بحياة الليل منذ أن صار شابًّا يافعًا، لم يكن يعقد مجالسه إلا ليلاً، يواصل الركوب كل ليلة، يجوب الشوارع والأزقة؛ أصدر

أوامره بتعليق المصابيح على الدور، والحوانيت والمحال، ويجدد هذا الأمر كل عام، تبعه أمر منه بكنس الشوارع والأزقة، وأمام أبواب الدور، بدت القاهرة في ثوب وضاء من النظافة تسطع بالقناديل والشموع الكبيرة، تتزين الأسواق بأنواع الزينة فغصت المدينة باللهو والمرح، وأنفقت الأموال في الزينة والمأكل والمشرب والسماع..

يجوب الخليفة الجديد الشوارع والأزقة، ومن حوله يحتشد شعب القاهرة العامرة الساهرة، يشق جموعهم في بساطة ورقة، لا يمنع من يقترب منه، ولا من يخاطبه، استمر الحال على ذلك حتى كثر ظهور النساء؛ فاشتد تيار المجون والغواية، وخرج الناس عن حدود الاحتشام، فبادر الحاكم بمنع النساء من الخروج ليلاً منذ العشاء، وعُوقب المخالفات منهن بشدة، ثم منع الرجال من ارتياد الملاهي والحوانيت، ثم أبطل جميع الأعمال والمعاملات ليلاً، وامتنع عن الركوب ليلاً فعاد الظلام يضرب أنحاء المدينة، فازداد شغف الحاكم بالليل والظلام، وبات يؤثر الجلوس فيهما وحده..

أوصى العزيز بالله لولده وخليفته اثنين من أكابر رجال دولته هما برجوان الصقلي خادمه، وكبير خزائنه، وكان يكنى أبا الفتوح، خصيًّا، تربى في القصر، اختاره العزيز، وولاه إمارة القصر، والثاني الحسن بن

عمار زعيم قبيلة كتامة المغربية من القبائل العربية التي آزرت الفاطميين، انتقلت معهم إلى القاهرة، وكان الحسن رجلاً قويًّا متعصبًا بقومه..

عندما تولى الحاكم بأمر الله وهو بعد صبيًّا يافعًا؛ ظهرت تصرفات الحسن كطاغية مطلق السراح، يدخل القصر ويخرج منه راكبًا، ويجلس بجوار غرفة الحاكم، ويلزم الناس بالترجل له، ويغلق بابه دون الناس إلا على الخاصة والأكابر من قبيلته التي أغدق على أفرادها الأموال والعطايا، فاستولى الشباب منهم على وظائف الدولة، واقتسموا السلطات بينهم، ووزعوا الشئون والمرافق، واعتدوا على أموال وموارد الدولة تحت سمع وبصر كبيرهم الحسن بن عمار، بل حرضه بعضهم على قتل الصبي الحاكم الشرعي والتخلص منه بعد أن أجبره ابن عمار على الانصياع لرغباته وأطماعه..

أحس برجوان بالخطر الذي يهدد الدولة لو صارت الأمور إلى نهايتها، وخشي على نفسه، وعلى سيده الحاكم فاستدعى قائد الجيوش بنجوتكين وقواته من الشام.. علم ابن عمار فجهز جيشًا لقتاله والخروج إليه قبل أن يأتي إلى القاهرة، فلما دخل بنجوتكين مدينة رفح المصرية بقواته قابله جيش ابن عمار، وانهزم بنجوتكين أمامه، وتمزقت قواته، ولكن ابن عمار أعطاه الأمان، وعفا عنه، وسمح له بدخول القاهرة التي ظل مقيمًا بها حتى مات..

اشتد ساعد أتباع ابن عمار بعد هذه الواقعة، وزاد استئثارهم بالسلطة، وعاثوا فسادًا في أرجاء الدولة، وعزلوا أتباع برجوان عن مناصبها، وبدأ نفوذ برجوان، والصقالبة في الزوال، ولكنه ظل يرقب الوضع ساهرًا يتحين الفرص لإسقاط ابن عمار بدس المؤامرات، وتأليب زعماء الجند الناقمين عليه مع شعور ابن عمار الذي كان يرقبه هو الآخر بهذه الدسائس راح يعد للدفاع عن نفسه وعن أتباعه حتى وقع الصدام عندما وثبت على أتباع ابن عمار جماعة كبيرة من الأمراء،والجند بدعم من برجوان وتحريضه؛ فدارت الدائرة عليهم وهوجمت دار ابن عمار ونهبت..

انزوى ابن عمار جانبًا، وآثر السلامة، وترك الأمور لبرجوان ينقض على زمامها بقوة، ولكن الحاكم أعاد ابن عمار إلى منصبه وامتيازاته مصانعة لقبيلته وضمانًا لطاعتها، وكانت هذه من إطلالات الحاكم على دولته ورعيته، وهو الصبي الغر الذي لا يملك إزاء الصراع الضاري بين قوى المغاربة والصقالبة إلا المراقبة عن كثب، بينما راح برجوان يجمع السلطة في يديه داخل البلاط بعد أن أخرج الخليفة الحاكم بأمر الله، وأخذ له البيعة من جديد ورتب أمور الخدم والغلمان، وأجرى عليهم الرواتب حتى على ابن عمار الذي عاد، وتلطف معه بعد أن ضمه إليه، وأعاد إليه إقطاعاته مشترطًا عليه الطاعة والولاء؛ ليضمن ولاء المغاربة،

ولزم برجوان الحاكم يقيم معه في القصر، ويسهر على توجيهه، واستبد بأمور الدولة حتى استقرت له الأوضاع إلى حين..

ومضت الأمور في بلاط الخليفة الصبي رتيبة يستأثر فيها برجوان وأتباعه بأمور الخلافة والاتصال برجال الدولة وشئونها تاركًا الصبي الصغير في لهوه ولعبه بعيدًا عن الرجال والأحداث، اتخذ هذا الخصي بطانة من الجند والمماليك، وكون ثروة ضخمة معتبرًا نفسه الحاكم الفعلي لاستصغاره الخليفة، ولم يدرك أن الصبي يشعر بخطورة منصبه رغم حداثة سنه، ويرى استئثار برجوان بالسلطة، والنفوذ في دولته ودولة آبائه، وهو يخطو نحو الخامسة عشرة..

وبرجوان يبالغ في طغيانه ومجونه، انصرف إلى المشارب والملذات إلى حد استرعى نظر الخليفة اليافع، اقترن هذا السلوك بالاستهتار والإساءة إلى الخليفة بشخصه الذي بلغه من خصوم برجوان أنه يريد إزاحته والاستيلاء على الحكم، وأنه يطلق عليه اسم الوزغة؛ وهي تشبه البرص المنزلي، أو الحية الصغيرة؛ أرسل إليه الحاكم من ينبهه بأن الوزغة قد صارت تنينًا كبيرًا، ولم يدرك هذا الخصي المغرور أن الرد ما هو إلا إنذار يشي بمن أوغر قلب الخليفة الشاب عليه خصوصًا ريدان الصقلي حامل المظلة الذي كان دائم التحريض على برجوان..

أضمر الحاكم في نفسه التخلص من برجوان؛ فاستدعى الحسين بن جوهر الصقلي قائد القوات، وبعث في طلب برجوان للركوب معه إلى قصر النزهة، جاء برجوان وسلم، وتبع الحاكم حتى خرج من باب البستان بالقصر، طعنه ريدان خلسة بسكين في عنقه، تبعه جماعة أخرى أجهزت عليه طعنًا، احتزوا رأسه ودفنوه حيث قتل، عاد الحاكم إلى القصر الذي علم من فيه بمقتل برجوان على يد أحد خدمه فاضطرب البلاط، وصاح ريدان:

- لينصرف كل إلى منزله، ويبكر إلى القصر المعمور.

بكر الناس إلى القصر في الصباح؛ فأذن لهم بالدخول، وبعد قليل خرج الحاكم على جواد أشقر، وخطب فيهم موضحًا أسباب مقتل برجوان، وما اقترفه من أفعال في حق الدولة والرعية، ونصح كل الذين في خدمته، وخدمة الدولة بالعمل والإخلاص..

ثم أخذ في التخلص من رجال برجوان وحاشيته في الجيش والقصر..

قبض الحاكم وهو صبي في السادسة عشر على السلطة بقوة، وأشرف بنفسه على دولته العظيمة، وأبدى في تدبير أمورها نشاطًا باهرًا مؤثرًا العمل المضني على اللهو واللعب لمن كان في سنه، فقد بدا ذا بنية قوية، مهيب الطلعة، تمازج الزرقة سواد عينيه الواسعتين، ذا صوت عميق..

بدأ إصدار الأوامر بنفسه دون وسيط، ومن تلك المراسيم الاجتماعية أمرًا بأن يعلق الناس القناديل على سائر الحوانيت والدور وجميع المحال والطرق، وفتحت مكتبة دار الحكمة بالقاهرة، وحملت إليها الكتب، ودخل إليها الناس، وأقبل عليها الكتاب والحكماء والمشايخ، فاشتد الطلب على الركابية..

أصدر مرسومًا بمنع الناس كافة من الدخول من أبواب القاهرة، ومنع المشي ملاصقًا للقصر، وأصدر أمرًا بقتل قاضي القضاة حسين بن النعمان، ثم أحرقه بالنار، وقتل عددًا كبيرًا من الناس بضرب أعناقهم..

لم تلبث أن هدأت ذكرى مقتل برجوان منذ خمسة أشهر حتى تلاه مقتل الحسن بن عمار ذات مساء، وهو يدلف خارجًا من القصر، انقض عليه الغلمان الترك، ثم فصلوا رأسه، وحملوها إلى الحاكم، فعين الحسين بن جوهر مديرًا للدولة ليبدأ الخليفة عملية من الاغتيالات المنظمة لقبيلة كتامة التي ساندت حكم أجداده الفاطميين، ثم قتل الحسين بن جوهر مدير الدولة..

لم تمضِ سنة أخرى حتى قتل غلمانه الترك مؤدبه أبا التميم سعيد بن سعيد الفارضي وهو يسامره في مجلسه لتدخله في شئون الدولة، بعدها بشهرين، قتل الحاكم ابن أبي نجدة متولي الحسبة بعد أن اعتقله، ثم قطع يده، ولسانه لتدخله في شئون الحكم..

ثم بدأ الخليفة في قتل من حوله فقتل كاتبه جوهر، ثم استدار إلى ريدان الصقلي فقتله، وقتل الكعبري منجمه الخاص، واستباح دم المنجمين كلهم، فبعث بالمنادين في الشوارع ينعتونهم بالكفر؛ فهرب معظمهم من مصر، واختفى من بقي منهم لدى بدو الصحراء..

قرب الخليفة القواد والسياسيين ليستفيد منهم حتى إذا تعاظم أمرهم دس عليهم وقتلهم، وأصبحت بعد ذلك سُنَّة في خلفائه والطبقات الحاكمة معهم..

وبدا أن الخليفة قد استغرق في الإحساس المفرط بأنه الحاكم بأمر الله، فاستمرأ مسلسل القتل لمن حوله ومن بلاطه وخدمه وأعوانه ما بلغ الآلاف، تناثرت حوله الروايات التي بالغ أصحابها في إصباغ الجفوة والتلهي بالدماء على شخصه رغم من سبقوه في هذا المسار الدموي من الخلفاء وأعوانهم مثل الحجاج، وأبي العباس السفاح، وأبي مسلم الخراساني الذي كان يقتل على الشبهة، حتى قال البعض إن اختفاء الحاكم كان قتلًا مدبرًا منه كي يتم التمكن من نشر دعوته..

أدى هذا إلى إهمال أحوال البلاد، وتعرضها للمجاعات، والانهيارات الاقتصادية المتتالية، حتى أكل الناس الجيف من الكلاب والقطط، وبِيع الأحياء من الكلاب بثلاثة دنانير، والأحياء من القطط بدينارين في وجود

الفرنجة المتربصين بالدولة على الحدود الشمالية، وتمرد قبائل السودان في الجنوب، وهجمات الأحباش على الحدود، كما كان الخليفة الحاكم على خلاف مع العباسيين في بغداد الذين حاولوا الحد من نفوذ الإسماعيلية الشيعة؛ فقاموا بإصدار منشور بأنه ليس من سلالة على بن أبي طالب، ثم استدار الخليفة الصبي إلى الرعية..

ووزع الناس مراسيمه وأوامره على سني عمره في خلافته، فعندما صار في العشرين من العمر أصدر مجموعة من المراسم؛ أمر النصارى واليهود بشد الزنار ولبس الغيار، ومنع الناس من أكل الملوخية، والجرجير، والمتوكلية، وذبح الأبقار السليمة إلا في أيام الأضحية، وأن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، ولا تكشف المرأة وجهها في الطريق، ولا خلف الجنائز، ولا تتبرج، ولا يباع شيء من السمك بغير قشر، وشدد في ذلك..

ضرب من يخالف ذلك من الناس، كما كتب على أبواب المساجد، والجوامع، والحوانيت، وشواهد المقابر سب السلف، ولعنهم، وأكره الناس على نقش ذلك، وكتابته بالأصباغ في سائر المواضع..

في العام التالي خرج على الناس رجل يقال له أبو ركوة يدعو لنفسه بالخلافة مدعيًا أنه من بني أمية، فتبعه خلق كثير، وآزروه نكاية في الحاكم، وقامت الحروب بينه، وبين عساكر الدولة الذين انهزموا أمامه مرات،

فاضطربت أحوال البلاد، وتزايدت الأسعار، واشتد الغلاء مع اشتداد الحرب مع أبي ركوة الذي انهزم أخيرًا أمام قائد العسكر فضل بن صالح في الفيوم، فطارده حتى قتله، وبعث إلى القاهرة بستة آلاف رأس ومائة أسير، فكان جزاء قائد العسكر المنتصر القتل في العام التالي..

وفي العام التالي زاد اشتداد الغلاء لنقص مياه النيل؛ فمنع الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب النيل للفرجة، ومنع بيع المسكرات، ومنع الناس كافة من الخروج قبل وبعد العشاء إلى الطرقات، واشتد الأمر على الناس، وداخلهم الخوف مع تزايد الأمراض، وانتشار الموت بينهم..

تزايدت الأمراض، وكثرت الوفيات، وعزت الأدوية، وأُعيدت الضرائب والمكوس التي رفعت وهدمت الكنائس بطريق المقس، وحارة الروم، ونهب ما فيها، وقتل كثير من الخدم والكتاب والصقالبة بعد قطع أيديهم بالساطور على الخشب من وسط الذراع..

بعد سنتين منع بيع الزبيب، وضرب من حمله، فألقى بكميات كبيرة منه في النيل، وأحرق الباقي، ومنع النساء من زيارة القبور، ومنع بيع العنب إلا القليل منه، ومنع عصره؛ فطرح في الطرقات، وداسته الأغنام والمواشي، وأغرق كثير منه في النيل، وقطعت بساتين الكروم في الجيزة..

في العام التالي ازدحم الناس على الخبز، ومات وزيره عيسى بن نسطورس النصراني الملقب بالشاني فأمر النصارى بلبس السواد، وحمل الصلبان من الخشب في أعناقهم، على ألا يقل طوله عن ذراع، ولا يقل وزنه عن خمسة أرطال، ويعلق ظاهرًا للناس، كما منعهم من ركوب الخيل، وترك لهم ركوب البغال والحمير بسروج وسيور سوداء بغير حلية، ولا يستخدموا مسلمًا، ولا يشتروا عبدًا ولا أمة، فأسلم منهم عدة..

منع الناس من ركوب المراكب في الخليج، وسدت أبواب الدور المطلة عليه والطاقات، ومنع الغناء والمغنيات، كما منع اجتماع الناس في الصحراء، وضرب جماعة بسبب لعب الشطرنج، وأمر بهدم الكنائس، ونهب ما فيها، ثم أمر ألا يقبل أحد الأرض بين يديه، ولا يقبل ركابه ولا يده في المواكب، ومنع ضرب الطبول حول القصر والأبواق..

كثرت إنعاماته، وأظهر زهده في أواخر أيامه، ركب يوم عيد الفطر إلى المصلى بغير زينة ولا أبهة سوى عشرة أفراس بسروج، ولجم محلاة بفضة بيضاء خفيفة، وبنود ساذجة، ومظلة بيضاء بغير ذهب، عليه بياض بغير طرز ولا ذهب، ولا جوهر في عمامته، ولم يفرش المنبر، وأمر بمنع الناس من سب السلف، وصلى كذلك في عيد النحر، وأكثر من الركوب إلى الصحراء بحذاء في رجله وفوطة على رأسه..

في العام التالي ألزم اليهود بتركيب جرس في أعناقهم إذا دخلوا الحمام، وصلبان في أعناق النصارى، ومنع الناس من الكلام في النجوم،

فمنع المنجمون، وطاردهم، ونفاهم، وكثرت هباته، وصدقاته، وعتقه، وأمر اليهود والنصارى بالخروج من مصر إلى بلاد الروم..

صار يركب بدراعة صوف بيضاء، ويتعمم بفوطة وحذاء عربي، وأفرط في العطاء، ورد ما أخذه من الضياع والأملاك إلى أربابها، ثم أمر بقطع يدي أبي القاسم الجرجاني كاتب القائد غين، فصار مقطوع اليدين، بعث له بألف دينار من الذهب، ثم أمر بقطع لسانه..

أبطل عدة مكوس، وقتل مزيداً من الكلاب حتى كاد يقضي عليهم، وأكثر من الركوب في الليل، ومنع النساء من المشي في الطرقات، وأغلق حماماتهن، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن، فتعطلت حوانيتهم بعد وقوع السيف فيهم، فهربوا، وغلقت الأسواق..

تزايد ركوب الحاكم حتى ركب عدة مرات في اليوم، واشترى الحمير، وركبها بدلاً من الخيل، وصار يركب حماراً بشاشية مكشوفة بغير عمامة، وأجزل عطاءه حتى بلغ نواتية المراكب والمشاعلية، وقتل كثيراً من وسطائه وسفرائه، وظهر راكباً ست مرات في اليوم مرة على حماره ومرة على فرسه، ومرة على محفة على الأعناق، ومرة في عشارى في النيل بغير عمامة، واتخذ بيتًا في المقطم ينقطع فيه عن الناس..

- ولا زال أتباعه ومريدوه يبررون أفعاله وينتظرون عودته..

- ولا زال الناس يتندرون بهذا المخلوق العجيب..

أهازيج حزبية

الريس جاد على عبد الواحد من الرجال القلائل الذين أنجبهم الحي -كما يعبر عن نفسه- ينتهز كل فرصة، وكل مناسبة بالحي كي يلقي بهذا التصريح الهام في أهالي الحي؛ مشفوعًا بخطبة يتلو فيها القرارات الحزبية الهامة التي تثير حوله تصفيق الناس، فإذا حدث هذا في مسجد الحي أثار التهليل والتكبير..

التحق الريس جاد بالحياة الحزبية قبل إلغاء الأحزاب في مصر، انضم إلى الوفد حزب الأغلبية قبل ثورة يوليو، متحدث بارع من حملة الألسن الحادة والألفاظ الرنانة، لا تخلو خطبه من هجوم وسباب ونقد جارح يعجب جمهور الأحزاب المتحمس، أصبح عضوًا في الاتحاد الاشتراكي العربي الحزب الأوحد في النظام الجديد، المسئول عن الحي، الوحيد الذي يحمل همومه، ويحل مشاكله، ويعمل لإسعاد أهله وسكانه، عندما تحول الاتحاد الاشتراكي إلى منابر لليمين واليسار والوسط انضم إلى حزب الدولة، وهو حزب الوسط الذي تحول بعد ذلك إلى الحزب الوطني..

ما عاد يظهر إلا في حملات الانتخابات فقط يبذل الوعود والأماني؛ فلم يعد جلاء الإنجليز يقلق الناس كما كانت أيام الوفد، ولم تعد المعركة مع إسرائيل هي التي تشغل الناس كما كانت أيام الاتحاد الاشتراكي، هناك مشاكل جديدة طفت على السطح لا يدري لها حلاً، ولا يعرف لها

قراراً، فقد تولى هذه الأمور في الحزب أناس أكفاء ذوو خبرة ومؤهلات عليا، وقدرة على الدراسة والبحث في أصول المشاكل وحلها، ومن الممكن جدًّا أن يكونوا من خارج الحزب، ولكن هل يسقط حصان السبق المدرب في حلبة كهذه؟!

يجلس على مكتبه المتواضع بالحزب متفرسًا في وجوه الحاضرين من شباب الحزب الذين انضموا إليه حديثًا، وبعض أصدقائه القدامى الذين رافقوا حياته السياسية يبتلع ريقه؛ وقد أشرب وجهه بغيوم قاتمة تتخللها مسارب عميقة، واشتعل الرأس شيباً، سقطت نظراته على مكتبه وهو يزفر:

- كانت أيام..
- أيام من؟
- أيام الزعامة، وأيام القضايا..
- أي زعامة؟ وأي قضايا؟
- كان الناس ينضمون للأحزاب من أجل الزعيم، ومن أجل القضية الوطنية..
- قرأنا شيئًا عن الزعماء والتفاف الناس حولهم، ولكن ما هي القضية الوطنية؟

- كان الاستقلال وجلاء الإنجليز هو القضية الوطنية التي شغلت الناس، وتكونت من أجلها الأحزاب كحزب الوفد..

- أليس غريبًا أن ينشغل الناس وتقوم الأحزاب من أجل الاحتلال الإنجليزى فقط، ونعلم من التاريخ أنه كان ينحصر في مدن القناة؟

- تخيل في بيتك شخصًا يحتل جزءًا منه، ويتدخل في حياتك، ويقاسمك المكان، والزوجة، والأولاد، وقرارتك، وطريقة معيشتك، احتلال.. تذكرون حادث ٤ فبراير عندما حاصرت دباباتهم قصر الملك فاروق وأجبرته على تشكيل حكومة وفدية أو التنازل عن الحكم.. احتلال..

- تريد القول بأن الموجود حاليًا ليس أحزابا؟!

- أين القضية؟ وأين القواعد الشعبية؟ عندما ألغت ثورة يوليو الأحزاب أنشأت الاتحاد الاشتراكي الذي كان يجمع قوى الشعب العامل، وتبنى جلاء إسرائيل عن فلسطين البوابة الشرقية لمصر..

- ولماذا لا تقول إن إلغاء الأحزاب قضى عليها بالموت؟! وعندما ولدت من جديد ولدت ميتة..

التفتوا جميعًا عندما دخل أحد أقطاب الحزب من شباب الحي، فطلب منه الشباب التعرف على اتجاهات الحزب السياسية بعد أن أصبحوا أعضاء في الحزب؛ أجابهم:

- ممنوع الكلام هنا في السياسة..

أجاب أحدهم:

- لقد قرر رئيس الجمهورية في إحدى خطبه أن على الشباب الكف عن التظاهر في الجامعات وممارسة السياسة في أماكنها الشرعية، ولا نرى مكانًا شرعيًّا سوى الأحزاب..

رد عليه الرائد الحزبي:

- أين بطاقة عضويتكم في الحزب؟!

أبرز كل منهم بطاقته الحزبية فأخذها وناولها للريس جاد:

- احجز لهم يا ريس في برنامج رحلات الحزب هذا الصيف..

بهت الشباب، وهموا بالانصراف بعد أن تركوا بطاقات عضويتهم إلى غير رجعة، وهم يتمتمون:

- لم نكن نعلم أن الأحزاب في مصر أصبحت للترفيه، وليست للسياسة..

الرغبة

بعد إفطار أحد أيام شهر رمضان الحارة قابل مدرس اللغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية الذي بادره دونما سلام:

- طمئني ما الكلية التي اخترتها في رغباتك؟
- اخترت العلوم بجامعة عين شمس، ثم القاهرة، والمنصورة.. إلخ، أي حوالي ست كليات للعلوم في أنحاء الجمهورية..
- وماذا أيضًا من كليات؟
- بعد ذلك اخترت الهندسة الإلكترونية بمنوف، والإعلام بالقاهرة، ثم الطب البيطري..
- طب بيطري؟! هل هذا اختيار؟ وهل يكون أول رغباتك العلوم؟!
- نعم، فأنا أرغب فيها، ومقتنع بها..
- في الحقيقة أرى أن الهندسة الإلكترونية بمنوف أحسن، ومستقبلها أفيد، ومضمون، ما تلك العلوم التي ستضع نفسك فيها، أتريد أن تكون مدرسًا، ألا ترى ما نحن فيه؟.. كفى.. كفى، لا تقل لي علوم مرة أخرى، إنها صعبة أيضًا، وغير مضمونة العاقبة والمستقبل، إن القلة القليلة جدًّا هي التي توضع في مراكز البحث والعلم، أما الباقي وهم الغالبية العظمى فمدرسون، وسأكون غاضبًا منك لو صممت على الالتحاق بهذه الكلية، ثم ما للهندسة الإلكترونية؟! لأنها في منوف؟ يمكنك أن تمكث في حجرة خاصة لمدة سنة، وبعدها تنتقل إلى أقرب كلية في القاهرة..

- يوجد أيضًا مثلها في بورسعيد والمنيا..
- وما لذي يؤخرك؟!

ولكنها كانت الرغبة في العلم والعلوم، وظهرت نتيجة التنسيق تقضي بالتحاقه بعلوم المنصورة؛ وكان صدام الأسرة للحيلولة دون ذهابه إلى المنصورة، وبقائه بالقاهرة في أي كلية أخرى قريبة في دراستها من العلوم كالتربية مثلا، حتى تدخل أحد الأقارب الحكماء، كانت الأسرة تحتكم إلى رأيه فيما يطرأ لها من مشاكل..

ما كانت الفترة التي مرت عليه بالمنصورة إلا امتداداً لفترة سبقت، هي ما كان يدور في ذهنه عن حقائق الأشياء، فقد كانت كل الأشياء لديه تخضع كلية لنير الفكر وسيطرة العقل حتى إيمانه باللّه والأديان تزعزع من معاناة الزحزحة، والقلقلة في الذهن المضطرب بكل ما حوله من أشياء وأفراد، لقد دخلت العواطف، والمشاعر في معادلات رياضية، وبراهين فلسفية صعبة، أغلقت عليه كل النوافذ التي تدخل بالضوء والحرارة، ظلت كلها داخل تلك الحجرة المظلمة ذات الصقيع القارس في رأسه حتى دوي انفجار آخر كان صداه هائلاً هذه المرة، وهو انهيار صرحًا من الصروح الهائلة..

إن العلم يقرب الأشياء والنتائج كي يستطيع تصوّرها، والسير فيها وحلها، فلشد ما كانت دهشته عندما كان في معمل الطبيعة بالكلية أجرى

إحدى التجارب لتعيين كثافة بعض السوائل مستخدمًا "قانون الطفو" لأرشميدس، فعرض له خلال التجربة أن يقوم بوزن القنينة المستخدمة التي احتوت على قطرات من السوائل المستخدمة في القياس ظن أن وزنها قد يؤثر على الوزن الكلي للقنينة، فاستفسر عن ذلك من الأستاذ المشرف الذي وجهه أن الوزن الكلي لا يتأثر كثيرًا بهذه القطرات التي يمكنه إهمال وزنها باعتبارها غير موجودة..

إهمال؟! يا للهول، في العلم؟!

أهذا هو العلم الذي كان يتحرى فيه الدقة المتناهية وطريقته في الوصول إلى النتائج التي نعتمد عليها في حياتنا؟!

تساهل في الكميات حتى لو لجزء على ألف جزء؟!

أم هي مثالية نظرية ليست من العلم في شيء؟

القلعة

لم تكن المهمة الأولى التي كلفته بها قيادته؛ فقد عرف عنه كيف اقتحم أكثر من قلعة، وموقع محصن رغم الهزيمة في ٦٧، وكان على القيادة تصفية الجيب الإسرائيلي الذي اخترق المنطقة الفراغ فيما بين الجيشين الثاني والثالث شرق القناة، وعند منطقة البحيرات، والذي اتخذ اتجاهات مختلفة مجتمعيًّا بالمنعرجات والتضاريس الجبلية الصعبة غرب القناة، وكذا بعض الأحراش النباتية الكثة..

يهرع في سيارته الجيب صوب مقر القيادة العليا بعد أن ارتدى الزي الميداني الفضفاض للحصول على التعليمات والمعلومات عن الموقع؛ تحصيناته، طبيعة الأرض، نوع الأسلحة والأفراد، والتكتيك الذي يستعملونه في التعامل حيال الهجوم والدفاع، الحالة النفسية للجانبين من واقع تقارير المخابرات..

عند الباب يعزف النفير السلام العسكري، يضرب جنود الحرس أقدامهم الصلبة فوق منصة التشريفات العسكرية رافعين بنادقهم:

- "سلام سلاح".. عندما شد اللواء السعدي عمر قامته المشوقة مجيبًا قادته وهو يصيح في قوة:
- "تمام يا فندم"..

يستدير مُيممًا نحو السيارة التي ستمضي به إلى البيت حيث يودع زوجته المريضة ويطمئن عليها..

ونظـرًا لخطـورة المهمـة وسـريتها اقتضـى الأمـر أن يكـون سـفر اللـواء السعدي بالسيارة الجيب العادية على الطريق الصحراوي بعد منتصف الليل..

جعل يراجع الموقف وتكتيكات الخطة في رأسـه حـين قفـزت في مخيلتـه فجأة صورة زوجته المريضة التي لـم ينعمْ بجوارهـا حتـى لحظـات شـدتها، ولكـن هكـذا يقضـي الواجـب الـذي ارتضـاه لنفسـه عمـدًا عنـدما التحـق بالكلية العسـكرية، وارتضـته لنفسـها حـين اقترنـت بأحـد ضـباط الجيش، وهو قد عرف الآن لماذا يزرع نبات الصبار في الصحراء، النبات الأخضر الغض بعصارته وسط الرمال الملتهبة..

وفي لحظـة تأمـل شـخص اللـواء السـعدي ببصـره مـن نافـذة السـيارة المغلقة لما حوله من معالم تبـدو في ضـوء القمـر الـذي لا زال هـلالاً رفيعًـا، تنبسط أشعته الفضية فوق الطريق الطويل والصحراء المترامية حوله..

وصـل نحـو القلعـة التـي سـيقود منهـا المعركـة كمـا هـي بالخطـة التـي تسـلمها مـن مركـز القيـادة، تقـع القلعـة في المنطقـة المحـررة، وهـي تشـرف على المدينة التي حاصرها العدو بعد وقف إطلاق النار، وقطع كل الطـرق المؤديـة إليهـا فيمـا عـدا الطريـق الواقـع علـى الجـزء المحـرر، وهـو الـذي اجتاز منه داخل القلعة بمصفّحة حسب الخطة؛ فـلا ينبغـي الـدخول علـى قدميـه أمـام جنـود الحاميـة التـي تحـرس المدينـة، ولكنـه عنـدما خـرج مـن

المصفّحة داخل القلعة راح يتجول في المكان للتعرف عليه قبل التعرف على العناصر البشرية، تفقد الثغور التي تبدو كبقع ضوئية تطل على الساحات الشاسعة حول القلعة، وتكشف الداخل إلى القلعة..

تبدو القلعة كتحفة من تحف معمار القرون السابقة، تحيطها الأسوار الحصينة، وحول الأسوار خندق مانع تملؤه المياه الصاخبة التي تمد أراضي القلعة من الداخل بأسباب الري للزراعة والشرب، فإذا امتنع الماء عنها زحف إليها العطش، وسار إليها الجوع بخطوات متئدة صامتة، ولكنها إذا أغلقت أبوابها صارت مدينة كاملة من مخازن الطعام، وآبار الماء، والمساكن، ومخازن الأسلحة، والمدافع فوق البرج المستدير، والسجن؛ فالقلعة دولة صغيرة تستطيع الصمود للحصار شهوراً طويلة حتى لو عز عليها الماء في الخارج..

عند الظهر يتمدد الجنود على أطراف الخندق يحملون قِرب المياه المملؤة من مياه الخندق الذي تترقق فيه المياه عندما تداعبه الرياح بأناملها الرقيقة فتهتز خيوط الأشعة الذهبية للشمس كنسيج العنكبوت..

يغري الجنود تلك الأذرع الممتدة من تحت الماء فيستجيب البعض لهذا الإغراء، يطفئون قيظ الصيف الذي يلهب الجلود السمراء، وعلى البعد في البساتين الواسعة يترك الريح الفضاء الواسع حول القلعة ليلهث لاهياً

بين الأغصان والسيقان فتهتز كراقصة أخذتها النغمات؛ تأتيها من شقشقة الطيور فوقها فتطرب هي الأخرى، وتهتز مع الريح العابث..

أغصان أخرى راق لها الماء، فراحت تنثنى فوقه في دلال، تغمس جدائلها المنسابة في استسلام؛ فهنا يشعر الإنسان بالأزل والاندماج في العناصر الأولية، يشعر بالوحدة والتعاسة اذا ما انصرفت عنه لاهية بنفسها..

في الصيف تقف أشجار البرتقال خجلى بعد أن جادت بثمارها في الشتاء، وعلى الأرض تتناثر جثث الأوراق يشق بينها النمل والهوام طرقًا، وأخاديد عميقة في حركة دائبة في صمت دءوب بلا ملل..

أعلن في الحامية عن مجيء القائد الجديد عند اقتراب المساء الذي اقترن بضرب مركز وعميق من جانب طيران، ومدفعية العدو مدعومة بصواريخ (أرض/ جو)، و(أرض/ أرض) الحديثة، وقد تجاوز كل مقاومة، واستطاع الوصول إلى أحد مداخل المدينة بعد التمهيد بهذه الضربات، وقد اتضح للقائد الجديد نية العدو في حصار المدينة الوادعة، تعليمات القيادة العامة تصل تباعًا مؤداها:

- تنظيم عملية الدفاع عن المدينة في أسرع وقت، وبما يتوافر من معدات قتالية، وسائل الدفاع، تموين المدينة من المخزون؛ الماء، الوقود، احتياطي الدقيق، المواقع الهامة، الحفاظ على الروح المعنوية..

- كتيبة بقيادة العقيد عماد سليمان تتمركز في مبنى إحدى شركات البترول تطل على مداخل المدينة تقوم باستطلاع تحركات العدو، وإبلاغها للقائد الجديد، كان المتوقع استئناف العدو للقصف ليلاً، أما سكان المدينة فقد بدا الموقف غامضًا بالنسبة لهم، كانوا يسمعون القصف على مشارف المدينة، ولم يتوقع أحدهم تقدم العدو أو محاصرة المداخل..

بدأ إخطار السكان بالموقف عن طريق مكبّرات الصوت، وبدأ الاستعداد، بدءًا من القيادات، المحافظ، المستشار العسكري، مدير الأمن العام، الحكمدار، قيادات الدفاع، المقاومة الشعبية، ومعها القيادة العسكرية متمثلة في الحامية التي قام قائدها على الفور بتنظيم القوات المدافعة عن المدينة..

شمل الاجتماع في غرفة العمليات كل القيادات، استعرضوا الموقف بدقة، تم حصر احتياطي الماء، والوقود، والدقيق، وسائل تنظيم الجنود غير المقاتلين من السكان والمقيمين في المدينة، تم تقسيم المدينة إلى قطاعات دفاعية، وتعيين قائد لكل قطاع..

بدأ الفنيون مد أجهزة الاتصال السلكية واللا سلكية في قطاعات الدفاع الرئيسية، وربطها بغرفة العلميات العامة، وقام القائد بتوزيع

أفراد اقتناص الدبابات الذين قاموا بتنصيب المدافع المضادة للدبابات والمدافع بعيدة المدى، كما قام القائد بنشر قوات الدفاع الشعبي وعناصر المقاومة مع أفراد الحامية بما يضمن الانسجام بينهما..

استمر العمل طوال الليل مع إبلاغ القيادة العامة بكل خطوة، تم إرسال فرق الاستطلاع إلى مشارف المدينة لتحديد تشكيلات العدو، انتشرت على أثرها الأخبار بالمدينة مما دعا إلى سهر المدينة كلها رجالاً ونساءً، وأطفالاً في حركة غير عادية دبّت في كل الأحياء حتى حان وقت صلاة الفجر، اكتظت المساجد بالناس، تضاربت المشاعر الغامضة بين التساؤل، والقلق، والثقة، ومحاولة استطلاع الحقائق، وهو ما دفع القائد العام بتكليف المحافظ ببث كل الحقائق التي تصل إليه من فرق الاستطلاع إلى الناس دون أن يخفي شيئًا عنهم..

- المدينة محاصرة..

- العدو يستعد لاقتحام المدينة..

- عليكم بالهدوء، وضبط الأعصاب..

- كل مواطن يساهم بما يستطيع للدفاع عن المدينة..

- لن تسقط مدينتنا..

- الله أكبر، والنصر لنا..

انصرف الناس ليتخذ كل موقعه، تسلح كل منهم بما استطاع، زجاجات المولوتوف، شكائر معبأة بالطوب، سكاكين، قطع حديدية بكل الأشكال، المستطيل، والمدبب، والحاد، صفائح الكيروسين، وقطع من القماش، والخرق، الكل بين الحياة والموت، المدى في الأعمار كبير بين الصبي، والشاب، والطاعن في السن، الرجال، والنساء، والمسلم، والمسيحي، الكل تحت طائلة الموت، الأطباء والممرضات في المستشفيات، قوات الشرطة تأخذ مواقعها بجوار قوات الحامية العسكرية، الطرق الرئيسية سُدّت بالسيارات القديمة، والدبش، التحذيرات تبث من خلال مكبرات الصوت، تتجول في الشوارع:

- لا تعرض نفسك لمنطقة مكشوفة..

- تحصن دائمًا خلف السواتر..

- تواجد في المخابئ تحت الأرض عند قصف الطائرات..

- العدو لن يصل بعد..

وعبر إشارات اللاسلكي إلى القائد العام:

- تمسكوا بمواقعكم..

- دافعوا عن مدينتكم..

- لا تراجع ولا استسلام..

- اعتمدوا دائمًا على اللّه..

- النصر حليفكم..

يعرف العسكريون أن المعركة صعبة، المدينة صغيرة، قوات العدو تحاصر من كل الاتجاهات، بالمدفعية، والمدرعات، مقاومة الطيران بالأسلحة الصغيرة فقط، وهي لا تستطيع مقاومة الطيران السريع، وقتال المدن ليس سهلاً مهما كان عتاد العدو، الروح المعنوية في ارتفاع، والسكان في شوق إلى الموت تحت أنقاض مدينتهم التي ليس أمامها إلا الصمود..

السابعة صباحًا، العدو يمهد لاقتحام المدينة، غارات مكثفة وسريعة، الطلقات متتابعة بلا توقف، قذائف المدفعية تتساقط في كل مكان، وأمام كل بيت، شريط السكة الحديد في الشارع الرئيسي ينصهر من حرارة القذائف، يلتوي إلى ارتفاعات عالية، فرق الإنقاذ تعمل بهمة ونشاط، المستشفى يستقبل الجرحى، الرهبة تجتاح المكان، صوت النفاثات يصم الآذان بالقصف المتواصل، الموت يطوف بالمدينة، الخسائر جسيمة في المباني والأرواح..

توقف القصف، وبدء الهجوم على مشارف المدينة من كل المداخل التي ظن العدو أنها انهارت من شدة القصف، وأن أهلها يعدون الرايات البيضاء لاستقباله، العدو يتقهقر عن أحد الكباري الصغيرة المحتل

بالمدافع المضادة للدبابات، كبَّدته خسائر فادحة في المعدات والأرواح، وصل بمدرعاته على مشارف الشارع الرئيسي بعد أن أحدث ثغرة في صفوف المقاومة التي تنهال عليه من المساكن الشعبية على أطراف الطريق، اخترق بعض التحصينات بعشر مدرعات وعشرين مجنزرة، استحث مدرعاته على السير بسرعة حتى يتجنب المقاومة الجانبية، بعد اجتياز الشارع الرئيسي دخل بسرعة نحو حقل الألغام، عند أول اصطدام انفجرت الألغام في الدبابة الأولى، تنهال عليها قذائف المدافع المضادة للدبابات لتصيب الدبابة الثانية في أعقابها، يرتبك صف الدبابات، يستدير آخر الصف في الجهة الأخرى ليولي هاربًا كما جاء..

تدخل مجموعة أخرى من الطريق الجانبي يقابلها أول صاروخ خرج من خلف المسجد الرئيسي في تلك المنطقة، ينحرف الصاروخ المنطلق قليلًا، بينما تسير أول دبابة بسرعة فيصيب سور السكة الحديد الممتد بطول الشارع، يخرج أحد الأبطال من حصنه ليتلقي الدبابة بنفسه حتى أصبح قريبًا منها، أطلق قذيفة من مدفعه، أطارت رأس سائق الدبابة في الهواء، جنود الدبابة يطلقون حولهم قذائف يدوية، البطل يتقدم نحو الدبابة رغم القذائف، يرمي بداخلها قنبلة يدوية، انفجرت الدبابة، واشتعلت فيها النيران، ثلاث عربات مدرعة تسير في أعقاب الدبابة التي احترقت يتلقاها البطل يقذف أولها، تشتعل، تتوقف الأخريتان، يقفز

منهما الجنود الذين أحاطوا أنفسهم بسياج من نار القذائف التي قذفوها بطريقة عشوائية، المكان يتحول إلى قطعة من الحجيم بعد أن انهالت عليهم طلقات البنادق وزجاجات المولوتوف، وكور النيران من سكان المنطقة المحيطة بالشارع، الصبيان يرتدون خوذات يخترقون بها النيران إلى مبنى الدفاع الشعبي الذي أصبح مقرًّا لتشوين الذخيرة، يملئون بها الخوذات، يعودون بها ورءوسهم عارية لتوزيعها على الأبطال..

جنود العدو يبحثون عن ملاذ لهم فيما بين المسجد ودار السينما بعد أن حاصرتهم النيران والقذائف والأحجار من جميع الجهات، يلوذ بعضهم بممر ضيق يؤدي إلى حارة صغيرة امتلأت بالعشرات من رجال المقاومة والسكان الذين يدافعون عن بيوتهم ومدينتهم، يدخلون إلى أحد المنازل التي لاحظوا أنها لا تقذف عليهم شيئًا، وعندما احتواهم المكان انهالت عليهم المياه الساخنة وكور اللهب المشبعة بالكيروسين من نساء هذا البيت، تناثرت جثثهم، وتبعثرت مع الأحجار، والطلقات الفارغة، وشظيات القنابل، والقذائف، والدبابات المحترقة، الأهالي ينقلون الجرحى إلى المستشفى، الأطباء والممرضات يتطوعون بدمائهم أكثر من مرة، جراحات سريعة، وعمليات خطيرة تجري على وجه السرعة، الشهداء يودعون مثواهم الأخير، المقاتلون والمقاومون يعيدون تنظيم صفوفهم، يعبئون أسلحتهم بالذخيرة..

خلال هذا التلاحم الدامي أصابت إحدى القذائف مخزن الدقيق بالمدينة، احترق المخزن، احتياطي المدينة مدة الحصار الطويلة، جاءت فرقة المطافئ، وفرق الدفاع الشعبي، وسكان الحي، والأحياء المجاورة بسرعة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، بعد جهود جبارة أمكن إنقاذ أقل من نصف الكمية، وهناك الاشتبكات المتناثرة، لا تتوقف، دخلت ثلاث دبابات من نفس الطريق الجانبي تتقدمهم عربة مدرعة، سائق العربة يصاب بالذهول من هول المنظر في المكان، لم يصدق عدد القتلى من زملائه الذين دخلوا قبله منذ ساعات، دار دورتين بالعربة ثم عاد بأقصى سرعة، تتبعه الدبابات الثلاث هاربة هي الأخرى..

بعد وقف إطلاق النار تم حصر ستين جثة للعدو تسلم نصفهم، وسألوا عن الباقي فرد رجال الحامية بأنهم يعرفون ذلك حتى يتصور العدو أنهم لا زالوا أحياء، ولكنهم أرادوا مساومتهم بقولهم:

- ما زال البحث جاريًا عنهم..

بلاغ من فرق الاستطلاع للقائد العام:

- تم قطع المياه عن المدينة..

القائد يصدر تعليماته:

- دبروا احتياجاتكم من المياه بأي وسيلة ممكنة..

طلعت شمس اليوم التالي الذي بدا هادئًا، العدو لم يهاجم المدينة هذا الصباح، القوات النظامية وقوات المقاومة والدفاع الشعبي يتأهبون لمعركة جديدة، الإعداد يتوالى طوال النهار، جمع الأحجار، حفر الخنادق، اتصالات عدة بالقيادة العامة، وصول أسلحة جديدة، المستشفى الأميري يكتظ بالجرحى، نقل عدد منهم إلى مبنى الدفاع الشعبي، ومعهم أطباء، وممرضات متطوعين، المخابز تعمل بكل طاقتها، تم وضع خطة محكمة لتوزيع الخبز وباقي المؤن تحسبًا لحصار قد يطول..

ثم يأتي المساء..

قذائف العدو بدأت من جديد من جميع الجهات، تدك المدينة في عنف، القائد العام يتلقى إشارة عاجلة:

- العدو يريد البحث عن الجنود الباقين، هل قتلوا؟ هل وقعوا في الأسر؟

العدو يتصور أن المدينة مسلحة تسليحًا خارقًا، يترددون في القيام بهجمات جديدة، التضحيات كبيرة، العدو يستخدم أسلوب التهديد، يحاولون التحدث إلى رجال الحامية، إلى قوات الدفاع الشعبي، يستدرجونهم في الكلام للحصول على أي معلومات عن المدينة الصامدة:

- ماذا في بلدكم؟
- كم عددكم تقريبًا؟
- مئات..؟ آلاف..؟ أكثر..؟
- هل كلكم عسكريون؟

رجال الحامية يهولون الأرقام:

- نصف مليون أو أكثر، عدا قوات الدفاع الشعبي والمتطوعين..

قائد العدو يستعين بأحد الأسرى كي يتصل بقيادات المدينة:

- لا أعرف أرقام تليفونات أي منهم..

القائد يبحث في دليل التليفونات الخاص بالمدينة، يأمره أن يكلم المحافظ:

- القائد يريد أن يتحدث معك..

قائد العدو يتحدث بلهجة عربية شامية:

- أنت المحافظ؟
- لا..
- أنت أكيد المحافظ..
- قلت لك: لست المحافظ، ماذا تريد أن تقول له..

- اسمع جيدًا، سندمر البلد بالمدفعية والطيران، لن نترك حجرًا فوق الآخر، كل هذا سيتم خلال نصف ساعة إذا لم تعلنوا تسليم المدينة..

- تعتقد أن هذا وقت أستطيع أن أبلغ فيه المحافظ، ثم أرد عليك؟ أعطني مهلة أطول..

- لا، نصف ساعة تكفي، كل ما في الأمر هو أن تأتي مع القائد العسكري، ومدير الأمن، ومعكم باقي الأهالي رافعين الأعلام البيضاء، وأنا منتظر في الاستاد..

وانقطع الاتصال..

اجتمع القادة لتقدير الموقف:

- هذا تهويش فارغ، العدو تكبد خسائر فادحة، الهجوم مستحيل، وإلا لما لجئوا إلى هذا الأسلوب..

- لا بُدَّ من نقل الحديث كاملاً للقيادة العامة، وإشراكها في تقدير الموقف معنا..

القائد العسكرى يروي للقيادة العامة الوضع القائم، وتقديره للموقف، التموين، الماء، العتاد، الأفراد، الأدوية، الخبز، الدقيق، القتلى، الجرحى، القيادة العامة تسأل:

- هل قواتك كافية للدفاع عن المدينة؟
- بالطبع قادرون..
- عليك تقدير الموقف مرة ثانية مع القيادات التي تساعدك، وسوف نرفع الأمر إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة..

بعد الاتصال بساعة يتلقى القائد العسكري إشارة من القيادة العامة:

- قرار القائد الأعلى: لا تسليم، قاتلوا حتى آخر رجل وامرأة وطفل..

هلل الجميع لقرار القائد الأعلى الذي بث فيهم روحًا جديدة أزالت عنهم هم التسليم من هؤلاء الذين ضحوا كل هذه التضحيات، بعد أن شعر كل منهم بالحرج ممن استشهد قبلهم، وكيف سيمشون فوق تراب هذه المدينة ودماء هؤلاء الشهداء لم تجف منها بعد، وكيف يسمحون لهذا العدو أن يطأ هذا التراب المضمخ بعطر دمائهم الطاهرة، وماذا هم قائلون لهؤلاء الشهداء إذا التقوا بهم عند رب كريم، لقد جاء قرار القائد الأعلى طهرة مما علق في بعض الأذهان من التسليم والخلود إلى الراحة..

ارتفعت الروح المعنوية لأقصى درجاتها، وشعر كل منهم أنها أضافت قوة إلى قوته، وعزمًا إلى عزمه، استهتر الجريح بجراحه، وانتفض من عانقه الموت بعد أن غمرته الحياة مرة أخرى..

انتبه الجميع إلى جرس التليفون الذي سرى فيه صوت قائد العدو مستعجلًا الرد، التقط القائد السماعة، ثم ردها مكانها مرة أخرى، الجرس يتواصل، ينفعل أحد الجنود المتواجدين حول القائد، يلتقط السماعة، يصرخ:

- يا أخي، البلد قدامك لماذا لم تهدها حتى الآن؟

استشاط قائد العدو غضبًا، فراح يهذي بكلام يشير إلى التهديد والوعيد، الجندي يرد السماعة إلى مكانها بنفس العصبية..

العربات تطوف الشوارع بمكبرات الصوت:

- لا تراجع ولا استسلام، سنقاوم، سنحارب، سننتصر بإذن الله..

المساجد ترفع شعار المقاومة حتى آخر رجل:

- الأبطال يموتون واقفين..
- الجنة تنتظر الشهداء عند رب كريم..

العدو يحاول اقتحام المدينة مرة أخرى، اندفع من أحد المداخل بدبابة ومدرعة، وسيارة جيب وهو يحمي نفسه بنيران كثيفة من حوله، من أهداف الهجوم البحث عن الجنود الثلاثين الذين تصوروا أنهم لا زالوا أحياء، جنود العدو يختطفون أحد المواطنين العزل..

قوات المقاومة تفتح نيرانها، وتختطف ضابطًا منهم، الضابط يصيح بلغة عربية ركيكة:

- أنا عندي معلومات، أنا حفيدكم..

لم يمهله الأهالي أن يزيد عن ذلك، فقد أشبعوه لطمًا، وركلًا، أصيب فذهبوا به إلى المستشفى الأميري..

وجد العدو أن التهديد لم يجدِ نفعًا في تحطيم الروح المعنوية العالية لدى المدينة، فراح يروج الإشاعات، انتشرت إشاعة اجتاحت المدينة بأن مدرعات العدو ستهاجم المدينة، وسيضعون أسرى المدينة في المقدمة فلا يستطيع أي مدافع عن المدينة أن يقاوم هذا الهجوم..

طائرات العدو تلقي بالأقلام والمحافظ، وبعض الوجبات الغذائية المغرية التي اجتذبت إليها بعض الأطفال فانفجرت في أيديهم، وقام ذويهم بنقلهم إلى المستشفيات، وقامت المساجد بتحذير الناس من التقاط أي شيء تلقي به الطائرات خاصة الأطفال..

غارات الطيران في المساء، انطلاق صفارات الإنذار في كل مكان من قوات الدفاع الشعبي الذين جروا في الشوارع والحارات:

- اطفي النور.. اطفي النور..

سعاد عروسة جديدة وعدها زوجها الشاب في المقاومة الشعبية بتناول العشاء معها خلسة في المساء عندما تهدأ الغارات، فأعدت له دجاجة سمينة من دجاج أمها التي بنت له عشة فوق سطح البيت، ذهب الزوج لعروسه في المساء، وكأن غارات العدو على موعد معه، العروس تتمسك بأن يتناول عشاءه قبل النزول مرة أخرى عندما انطلقت صفارات الإنذار، جلس معها، تناول قطعة من الدجاجة، أشعل سيجارة، صرخ أحد شباب الدفاع الشعبي من الشارع:

- اطفي النور في الدر الرابع..

اندس الشاب تحت السرير ليسحب نَفَسًا من السيجارة وهو يأكل، وعروسه تتبعه بباقي الدجاجة، ينطلق صاروخ من إحدى الطائرات يخترق المبنى مارًّا بجوار السرير، تمايل الشاب ضحكًا هو وعروسه والموت ينظر إليهما..

تم الدفع بوحدات انضمت للدفاع عن المدينة عن طريق المزارع المنتشرة بأطراف المدينة، وتعزيزات من المدافع والصواريخ، والذخيرة، وبضعة أنواع من الأدوية، والمسكنات، ولفائف القطن الطبي والشاش، ولكن ظهرت مشكلة التموين والسيطرة على النظام، كان لا بُدَّ من ابتكار طرق وأماكن مؤمنة لتخزين المعلبات والماء، أقيمت خزانات مياه تحت

الأرض تتصل بمواسير إلى داخل المدينة، تقرر وقف بيع الخبز من الأفران، ولكن عن طريق العسكريين، وقوات الدفاع الشعبي كمهمة أُضيفت إلى مهامهم الكثيرة، رغيفان لكل فرد يوميًّا، وثلاث معلبات من البامية، والفول، واللانشون، بعد أن تقوم كل مصلحة أو مؤسسة بتقديم كشف بعدد ما لديهم من أفراد..

مخابرات العدو تنشط في الحصول على معلومات من قلب المدينة، يحاولون تجنيد بعض الجواسيس بالإغراءات المالية والتموينية، السكان يستهجنون هذا العمل، إنه العار الذي سيلاحقهم طول الحياة، فالعدو سينسحب يومًا ما، وستبقى المدينة وسيبقى الناس، بعضهم جارى العدو فيما أراد، يأخذ ما يستطيع الحصول عليه من مال ومواد تموينية، يتجه بها على الفور إلى قادة المدينة يسلم ما معه من مال ومواد تموينية، ويروي كل شيء عن العدو، تحمله القيادات بما يريدون أن يوصلوه للعدو من أخبار ترهق أعصابه، وتزرع فيه اليأس..

تناثرت منشورات العدو بين الأهالي تطالبهم بالاستسلام، الأهالي يقومون بإحراقها، ثم لجأ العدو إلى مكبرات الصوت عند أطراف المدينة، وكانت هذه الوسائل تثير حماس الناس وتحفزهم على المقاومة، أوقف العدو هذه الأساليب بعد أن لاحظ زيادة خسائره في العتاد والأفراد، فقد ركزوا في إصابة الأهداف بينما تميزت ضربات العدو

بالطيش والعشوائية بعد أن يأسوا من دخول المدينة التي لم تيأس من حصار فُرض عليها طيلة مائة يوم، بينما يئس المهاجم من هذا الحصار..

جنود العدو يصرخون:

- كفاكم ضربًا، الضرب يأتيكم من الموقع المجاور لنا، اضربوهم..

وعندما تتجه الضربات نحو الموقع الآخر يصيح جنوده:

- نحن لم نضرب بعد، ولن نضرب..

بعد أيام طلب قائد العدو مقابلة القائد المصري تحت علم الأمم المتحدة التي ما لبث أن نزلت قواتها إلى المدينة لوقف إطلاق النار والفصل بين المتحاربين، وتم توقيع اتفاقية الانسحاب، وتبادل الأسرى، وتسليم جثث القتلى من الجانبين..

جنود العدو على مشارف المدينة يرقصون ويغنون ويسكرون، فأسعد أيام حياتهم العودة إلى بيوتهم بعد المعارك الفاشلة..

السأم

استقر في المقهى الكبير، نظر فيمن حوله من الناس بغيظ، يستنكر حركاتهم وسكناتهم التي بدت له متكلفة وفارغة، في الركن القاصي من مجلسه بدا له شاب قابع، يده على رأسه، وكأنه يتوجع من شيء، وهو ما جعله مختلفًا عن بقية الناس في المكان فهو لا يأتي بحركات مدعاة، بل لا يأتي بأي حركة، ساكن كالسكون في هذا المكان الصاخب المهتز..

على البعد تبدو فتاتان نحيلتان في أسمال تكشف أكثر مما تستر، المكشوف من الجسم لا يتميز كثيرًا عن الملابس المتسخة، تفرغان صندوقًا كبيرًا من الخرق والفضلات، تنتقيان منها أشياء، ذهبت إحداهما نحو المعمل، وعادت تحمل قطعتين من الجيلاتي تلعق فيهما حتى إذا ما بلغت أختها اختطفت منهما واحدة، بعد أن حددت أيهما أوفى نصيبًا..

أصناف وأصناف من الباعة الجائلين يحملون سلعًا بدا على الجالسين على المقهى أنها لا تحرك فيهم غريزة التملك أو حتى فضول التطلع..

في القريب منه سحبت إحدى المضيفات كرسيًّا وجلست إلى أحد الزبائن، يرتدي حلة أنيقة، ورابطة عنق جذابة، يحتسي البيرة، وحوله فوق المنضدة عدد من الزجاجات الفارغة، صوته الجهوري يجلجل في المكان، يهزي، لا يفكر بما يقول، أما هي فصوتها يسمع بالكاد:

- لم نتعود على غيابك كل هذه الفترة..
- قضية عسل يا رباب..
- كانت عاصية عليك؟
- على أبو علي؟ لا يجوز، راح يا حبيتي في ستين داهية، ها، ها، ها..
- يا ساتر على الشر..
- هو من جاء في طريقي..
- أمه داعية عليه؟
- ربنا يكون في عونه..
- كم سنة؟
- ثلاث سنوات في عين العدو..
- يستاهل..
- تلفيقة وحياتك، أوقعته في شر أعماله..
- حرام عليك..
- يا رباب، ٩٠٪ من شغلنا تحايل على القانون، ونفاذ في ثغرات القانون، من أين لي بقيمة هذه السموم التي أعبها كل يوم؟

يكاد هذا الصخب ينسيه سأمه المزمن؛ لولا أن حانت منه التفاتة أعلى الحائط المقابل ليطالع الساعة الضخمة، أذهلته عما يدور بالمكان،

وقد تصدرت الحائط، يحبطه كسلها المتعمد وهو يتابع تسكع عقربيها، ينشط ثالثهما متعثرًا في طوله كما لو أصابه دوار، فبدا جهده الكبير بالنسبة لرفيقيه كأنه -كالبشر- في وادٍ والآخرون في وادٍ، لماذا يمر الوقت هكذا ثقيلاً على الإنسان المنفرد والبعيد عن أدواته وأشيائه؟.. وهل يسري الوقت بين الناس بطريقة واحدة؟ فهو كالنسيم على البعض، وكالهم على البعض الآخر، وهل الحركة تحرك الإنسان فتحرك زمنه معه؟ وهل يتجزأ إلى هذا الحد فيختلف باختلاف الظروف والأماكن؟

يدخل الناس المقهى وكل منهم يتمنى أن ينسى آلامه، مشاكله، ولكنه يخضع للغريزة الخالدة، التعرف على من حوله، مشاكلهم، آلامهم، يتعمقهم، يشعر بهم، وكأنه لا يشبع، ولا يكفيه ما لديه منها، يدور في حلقة مفرغة من المشاكل والآلام حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، لا بُدَّ من المغادرة وإلا انفجر فيمن حوله، ولكن إلى أين؟

الفشل

انحنى الليل وامتطى الفجر صهوته، يلهبه بسياط لاسعة، يركض الليل مختفيًا عن الأنظار، استكان الفتى في ركن من الحجرة ساهمًا، متربِّعًا فوق أريكة مستطيلة، وسحب الكآبة تعتلي الوجه الشاخص..

يزفر مع اعتلاء الصباح؛ فالنور البادي لم يستطع أن يمحو ظلام النفس الذي جثم فوق صدر يعلو ويهبط مثكلاً بأنات، ماذا لو كان ما سمعه اليوم كذبًا؟ أو كان هناك خطأ أو تبديل؟ كيف تضيع تلك السنة وهو ينظر؟ وكيف سيتجشم مشقة التكرار والإعادة، وقد يتقدم عنه أترابه لسنة جديدة، ودرس جديد؟ إنهم سيفقدون الثقة به لا محالة، مهما كان احترامهم له ومعرفتهم بمقدار جهده، وإخلاصه في عمله، أي شيطان لعين أرداه لهذا السبيل؟ وكيف يخبر من في البيت بهذا النبأ المشئوم وهم على حالهم من الاغتباط والسرور..

هذه مرة من المرات التي يداهمه فيها الفشل العاتي، فلا يملك حياله إلا الاستسلام..

هل هي كبوة من كبواته التي يرى فيها نفسه عند الدرك الأسفل من مدارك اليأس من الحياة؟ وهي التي لا تعرف الكلل، أم أنه الغرور؟ هل أمامه قدر يعانده وينازله في معركة غير متكافئة؟!

لقد بادر بالكتابة في ذلك بعد طول تردد، وهذه هي المحاولة، لا يدري كم من المرات فكر في الكتابة؟ ويبادره الفشل، هل هو فشل في الكتابة عن

الفشل أم هو الغرور والزهو في عنفوان الثقة تحبط في نفسه أي تفكير في هذا النوع من الكتابة عن الفشل؟!

ويبقي سؤال: هل ستظل حياته هكذا؟ لا يكاد يفيق من كبوة حتى تتداركه الأخرى؟ في الكبوة السابقة كانت هناك "....." بجانبه تواسيه، وتنفث في نفسه الثقة في الليالي الحالكة حلكة النفس..

أما في هذه الكبوة فهو بعيد عن أي إنسان يستل منه العزم والأمل، فكان من نفسه هذا الإنسان الذي استبد به الغرور، والثقة، وجنون الحب، قد يكون مرجع الفشل في الإنسان نفسه، في نظام وضعه وارتضاه ميزان عدل على ما فيه من ميل وزيغ؟!

السـوق

لم تكن تدري سر حنينها إلى السوق، تذهب إليه في شوق يهزها، ويملأ كل كيانها، كأنها تذهب للقاء حبيب، أول ما عرفت وأول ما أحبت، كم احتوتها تلك الساحات الواسعة، جرت ولعبت واختبأت بين الأقفاص والعربات، كم حرضها أترابها كي تنفذ بيديها الدقيقتين بين الأقفاص لتحصل على ثمرة من الفاكهة أو الطماطم، كم جرى وراءها التجار، واشتكوها إلى أمها كي تكف عن الجري والعبث بين البضائع، ومخالسة الزبائن، إنها بنت السوق..

كل شيء جميل بالسوق، يلم به كل من له حاجة، كان كل دنياها، ولدت في بيت لا يبعد كثيراً عنه، وتربت وترعرعت في جنباته، شاهدت فيه ألعاب الأولاد والبنات في الزوايا والخرائب، تذكر ذلك الشعور الذي أحست به يطل من خلف طيات لم تتبثق مع الحياة بعد، أما وقد خرجت هذه المشاعر من أكمامها بعد أن أمدتها الذاكرة خلسة بتلك الذكرى يوم احتضنها أحد الفتيان الذي كان ينتهز الفرصة ليختلي بها، فقد اصطبغت هذه المشاعر بلذة غريبة لا تدري كنهها، وإن كانت تهزها كلما رأت مشهداً كهذا الذي حدث لها يوم أن كانت صبية في السوق..

لا تصل نوال إلى السوق حتى تسلم على هذه وتحيي هذا بين مرحب بها وسائل عن أخبارها وبين من يترحم على أمها..

أما البيت فهو كبير فعلاً؛ الأثاث الفخم، الستائر، الخدم، الحجرات، حتى شاكر بك، الضابط المتقاعد، لم يبلغ سن المعاش بعد، أُعفي من الخدمة لسبب ما لا تفهمه، يزيد فراغه بعد المعاش من عمق نظرته وذهوله، وتطرف مزاجه وتقلبه، فربما بدا منشرح الصدر راضيًا أحيانًا، لقد ظنته أول عهدها بالبيت مضطرب الذهن مشوش التفكير، لاحظت أن زوجته نجوان تشتد غيرتها عليه أحيانًا فتحصي عليه غدوه ورواحه، وتحسب عليه زينته وهندامه، وأحيانًا لا تهتم به، وتبدو كامرأة مستهترة عابثة في الوقت الذي يطلق هو لحيته وشاربه، وتزوغ نظراته في صمت..

- الطبع غلاب..

تتمتم بها سميحة عندما يتأزم الموقف بين والديها، وينهمك كل منهما في إعداد غرفة النوم الخاصة به بعد أيام من الوئام، والمشاركة في كل شيء، تغادر سميحة البيت إلى العم أو الخال لتبدو نجوان في كامل زينتها وعريها، تخطر في البيت هنا وهناك ليتميز زوجها غيظًا وألمًا دون اقتراب، وفي المساء تبدأ المناورات التي تبوء بالفشل ليخرج آدم مطرودًا من الجنة..

لم يكن الطبع هو تفسير ما تراه نوال، بل كانت هذه الحالة تبدو واضحة لكل من يزور البيت، ويعرف أسبابها جيدًا، نجوان هانم هي

الطفلة المدللة، لم تكن تفارق أمها لحظة، تطرق كل الأبواب بحثًا عنها، تقتحم مخدعها، حيث الأب ينتزعها منها للحظات قد تطول، تخاف على أمها، ترقبها خلسة، ترى أن أمها تكره ذلك، هل هو اغتصاب؟

عندما تسول لها نفسها التواجد لا تلقى من الأب سوى الدفع والضرب، بعد الزواج تعاملت مع زوجها كما كانت مع أبيها الذي يغتصب أمها، انشطرت حياتها شطرًا جعلها أمًّا لسميحة، والآخر تكتنفه فكرة الاغتصاب..

- الغيرة أم الرغبة..

نجوان هانم عندما تستسلم لزوجها، وتغار عليه، رجل متقد الحيوية، جم النشاط، عنيف شرس الطبع، حسن الهندام عندما يعود إلى جنته يشبه أباها في جوهره على بعد الشقة في المظهر..

حينما تثور أمها تكتشف سميحة أنها امرأة قد أثارت رغبتها كوامن كبرياء الأنثى وكرامتها، عندما تغار وتستأثر بالرجل فأثرتها بفحولته وقوته تضن بها على كل النساء، وهي ترى كمال المرأة في المحافظة على زوجها عندما تستطيع أن تطفئ فيه نار الشهوة كي لا يبذلها لغيرها، وعليها إزاء ذلك احتوائها وامتصاصها أولاً بأول..

أما في هذا البيت فهناك حرص آخر، كرامة أخرى، كبرياء آخر يفوق كبرياء أمها وكرامتها، فنساء هذه البيوت يغلفن تلك الرغبة والاستئثار بالزوج في أسلوب متحضر حكمتهن فيه أن الوقاية خير دائمًا، يتربصن فيه الهمسة والنظرة والكلمة، وأماكن راحته وخلوته، في حين أن بنت البلد تضرب عن ذلك صفحًا غير واضعة لهذه التصرفات أدنى قيمة لما يسود حياتها من البساطة، ورفع الكلفة بينما رفع الكلفة في البيوتات يعني بداية حياة جديدة لكلا الطرفين..

وهؤلاء السيدات يعنين أيضًا بهندام الزوج وزينته وطريقة ارتداء ملبسه بحكم غريزة المرأة التي تحب التجمل، وتحب أيضًا أن تشيع الجمال في من حولها، فليس صحيحًا أن الزينة تغري الرجل بالمرأة؛ بل العكس فالمرأة جميلة بالخلق والتكوين، بينما الرجل يلزمه التجمل، ومن هنا تأتي نقطة الضعف في بنت البلد التي تغلبها الغريزة فتنظر مأخوذة للرجل المتجمل الذي يملك عليها زمام نفسها، ومن ثم جسدها فتنقاد لقوة الغريزة وغلبة الطبع..

إن شاكرًا قد لبس حلة الحياة في أخريات أيامه عندما حلت نوال بالبيت العامر، ولعل حالته النفسية ورضاه عن نفسه في ارتفاع مستمر، أما نوال فأصبحت تميل إلى النوم والخمول..

إن الرجل مهما بلغ من حبه وإكرامه للمرأة التي أحبها، وعاشرها لا يغفر لها أقل إذلال له، وأقوى علة منها تقاوم رجولته، وتعمل على تثبيطها؛ حتى لو كان ذلك خارجًا عن إرادتها، فهو لا يتأخر عن تقديم ماله وصحته لتلك التي ترضي نزواته وتمتص نيران شهوته..

ولماذا يشقى الرجل، ويرهق فكره؟

تغدو نوال وتجيء تحت ناظريه تتلوى، وتنثني في ثوبها الناعم الذي لا يفلح في مواراة الشباب الطاغي والأنوثة الراغبة في الحياة، تمكر بالرجل، تتلاعب بشهوته المكبوتة تحت ثوب من الوقار المصطنع؛ أضفته عليه حوادث الأيام، يستدير وجه نوال في نعومة، وطرواة فلا يتسع إلا للملامح الدقيقة..

الاختيار والرضى بالاختيار، نقيضان في الحياة يعيش بينهما من يتقاسمون شطري الحياة المظلم والمضيء، لقد قدر لها أن تنتقل من شطر إلى آخر لم تسعَ إليه، ولكنها قد ترقبه، وتنشده عن بُعد، ولشد شقاء الإنسان الذي يلتحق بذيل أو بهامش، فأهون عليه أن يعيش في الدرك الأسفل من الحياة منتميًا على أن يعيش على أطرافها غريبًا، وهو ما قد يظنه الأغبياء سعادة أحيانًا..

انتقلت نوال من سعة السوق إلى سعة البيت الكبير بعد وفاة أمها التي تركتها لبيت شاكر بك، فتزوجها ربما تشفى نجوان من المزاج المتقلب، ولكنها أمعنت في الابتعاد والتمنع، وكأنها قد استراحت منه..

مات الرجل الذي أعزها برغبة الحياة؛ فأحسن وصيته لها كي يحيا ابنه منها مع أمه في سلام بعيداً عن نجوان..

ولكنها ضاقت بحياة لم تألفها، ولم ترَ أمومتها النور، اشتعل البيت، ماذا تنتظر، لتعد إلى السوق، ولتنزل من سمائها راضية بعد أن أصيبت بالدوار، فلا بيت، ولا أبوين، ليس هناك سوى عبد التواب الذي عرفها في البيت الكبير، وكان يعرف أهلها من قبل..

- إن المشردين ينتجون سلالات مشردة..
- فليحن كل عرق إلى منبته، وليتدفق جذلاً إلى قلبه..
- لماذا لا تتزوج المرأة عدة مرات كالرجل؟!
- لماذا لا تتمتع مثله بالزواج دون مشاغل ولا عائق يحول دون سبيلها في الحياة؟
- قد تبدو المتعة للمرأة رسالة، أما بالنسبة للرجل فهي سرقة مباحة؟

قال لها عبد التواب وهو يرفع حاجبين كثين، ويفتح فمًا أشبه بكهف مظلم ينبو عن أسنان سوداء متداعية كساكني الجبال، تميل إحداها على الأخرى في غير انتظام؛ وكأنها تتراقص مع كلماته:

- تتزوجيني؟!

هـروب

انطلقت السيارة تجري على الطريق تكتسح كل ما بدا لها من عوائق، وتهدد بالخطر كل من أراد أن يعبر الطريق، ومن خلفها بدا شبح أحد رجال الشرطة يعتلي دراجته البخارية في مطاردة مثيرة بدا فيها كل من قائد السيارة والشرطي في حالة من التوتر والتخفز بين الإسراع والإبطاء أو التوقف المفاجئ أحيانًا..

في إحدى الوقفات المفاجأة ارتطم رأس قائد السيارة بعجلة القيادة، فاعتراه ما يشبه الزلزال المدمر؛ ارتجف وقد غامت الدنيا في عينيه، ولا زال يسمع هدير المحرك، انفتح الباب بسرعة من الشرطي الذي تعقبه، وفي غير توقع من الشرطي الذي ظن أنه مغشي عليه من أثر الصدمة، انطلق خارج السيارة يهرول بكل سرعته نحو المباني الآهلة بالسكان المحيطة بالشارع، وقد خلت الطرقات من كل المخلوقات ما عدا هو، والشرطي الذي تخلص للتوّ من دهشته فانطلق في أثره، ولكن دون جدوى، فقد اعترى السائق شيء من الجري الهستيري غير مبالٍ بالأرض التي راحت تنطوي تحته طيًّا تعجب له..

ولكنه لا يفكر في هذا، كل ما يهمه أن يختبئ من الذي ما زال منطلقًا خلفه، ينصت لخطواته الواسعة تبتعد ولكنها تعلو، وتطن طنينًا مرعبًا في رأسه حرك فيه كل القوى التي شحذت لتؤدي عملاً واحدًا هو الهرب بأي وسيلة، ولكن الهرب من ماذا؟

إنه ترك سيارته، وعليها رقمها، وفيها رخصته، وبطاقته التي تحتوي على اسمه وعنوانه ومكان عمله، ولعل هذا هو الذي أثنى الشرطي عن متابعته إلى الآن؛ ففضل أن يعود إلى السيارة فهناك يحصل على كل شيء في يُسر، خفف سرعته فتعثرت خطواته حتى اصطدمت قدماه بأحد أحجار الطريق المبعثرة فانكب على وجهه متدحرجًا على الأرض بين كُتل الحجارة القاسية التي ألهبت بالجروح كل جسده فانطلق الدم يسيل منها وقد تقاطر على وجهه حتى غطى إحدى عينيه..

وسط الأوحال وبرك المياه راح يجر أعضاءه الواحد تلو الآخر ملتويًا كثعبان يتخبط، يلتمس ملاذًا يحميه من بطش العواصف وبرودة الجو، فقبل أن يترك السيارة كانت الأمطار الغزيرة قد غطت الأرض بالبرك والأوحال بعد أن تلبد الجو بالغيوم، وقصف الرعد، وأبرق في السماء منذرًا أهل الأرض بوخيم العواقب؛ فتصور أن حالة الجو تنذر بكل ما في الدنيا من شرور، ومصائب تتآزر كلها كي تنصب فوق رأسه، وربما خطفت روحه التي سئمت كل ما في الحياة..

راح يتشبث بأصابعه في الطين وكتل الحجارة باذلًا كل ما لديه من جهد كي يصل إلى مكان يستتر فيه، ويلتمس بعض الدفء حتى استقر في مدخل أحد البيوت المظلمة، وكل ما حوله قد هجع حتى كلاب الطريق

تخلت عن نباحها، ولاذت بالاختباء والدفء، وفي الركن البعيد التصق بالحائط؛ وقد تدثر بسترته، وراح يمسح الدماء من فوق الجروح وقد تجمد بعضها من شدة البرد..

في الهزيع الأخير من الليل غابت الكائنات في سُبات عميق، وكأن البيوت في تلك اللحظة تحولت إلى مقابر تعاني من أجساد البشر التي ألقت بكل ثقلها بين الجدران؛ وقد شدت بخيوط سحرية من الأثير يمسك أطرافها مارد ضخم كالأبد؛ يسكب عليهم كؤوسًا من الفناء بعد أن ألبسهم ثيابًا من العدم..

وهو.. يلتحف أغطية كثيفة من ليل حالك السواد؛ ينتفض جسده من وقع سياط البرد اللاسع؛ وقد آلمته كل جروحه بعد أن انطمس بعضها بالطين، وبدا له شبح المرأة التي كانت تعبر الطريق؛ يعتلي كتفها طفل رضيع يتبدى له خلف ستائر الظلام فتبدو له كشبح مرعب أو كابوس مزعج..

ماذا هو فاعل؟ أيظل هكذا مختفيًا؟ أيمضي إلى البيت قبل طلوع الصبح وافتضاح أمره بين الناس؟ وكيف السبيل إلى البيت وهو على هذه الحال؟ أيسلم نفسه للشرطة؟ وماذا سيكون من أمره سواء أسلم نفسه أو عثروا هم عليه؟

التحقيق، ثم السجن، المرأة، وطفلها، هل ما زالا على قيد الحياة؟ الكلمات تتأرجح بين جنبات رأسه في صورة ضخمة ذات إطار من علامات الاستفهام، إن الدم قد اندفع على زجاج السيارة الأمامي، أبعد هذا ترجو لها حياة؟! وترجو لنفسك النجاة والسلامة؟!

إغفاءة قصيرة تريحه من كل هذا العناء، يفيق على صوت يشق حجب الظلام، وكأنه الوجود يهيب بالعدم، اللّه أكبر؛ راحت تتبارى المآذن في بعثها، وانتشارها في خطوط دائرية تتقاطع كلها؛ ثم تلتقي لتصير طنينًا في أذنه، عزفًا مجلجلاً توقعه الكائنات فوق رأسه، تمتم بها وهو يتفصد عرقًا مما اعتراه من خوف.. خوف أسمى من كل خوف، ولكنه لا يتخطاه إلى مرحلة الرعب، خوف مشوب بالأمل، الأمل في ماذا؟ أمل مبهم غير موجه، وغير ذي موضوع، ولكنه يخفف من الهلع الذي يعتريه في المواقف العصيبة..

بعثت فيه دفقة الأمل هذه شيئًا من النشاط جعله ينتفض واقفًا، وقد نفض عنه كل الأفكار القاتمة كسواد الليل الذي خاضه هاربًا، انتعش ذهنه، بدا مصممًا على الذهاب إلى البيت بأي وسيلة، فها هي خيوط الضوء الوردية تنسل في هدوء، بعد أن احتجزتها خيوط الليل الكئيبة، والتفت عليها حتى كادت تختنق، وتخنق معها من كابد الليل الطويل فتكشف كل شيء في المكان الذي لا بُدَّ من مغادرته في الحال..

اتجه نحو سيارته متلهفًا لرؤيتها، عندما وجدها في مكانها هدأت نفسه، راح يفتش فيها ليجد كل شيء في مكانه كما هو، انتابه السرور عندما أدار المحرك فاستجاب له بسرعة، انطلق بها مسرعًا إلى البيت، ولكن وجوده في البيت قد يجلب المتاعب في هذا اليوم على الأقل، فليذهب إلى أمه، يسكن إليها بعض الوقت، ويفكر فيما يفعل، فقد يجد الملاذ على صدر أمه العجوز..

حول النافورة المتدفقة أمام الباب الرئيسي الضخم لقصر القبة تنقسم المساحات الشاسعة أمام باب القصر إلى عدة حدائق، تتخللها الأشجار، وتحيط بها الساحات الخضراء المفروشة بالنجيل، يعلوه سياج من الأشجار القصيرة المتشابكة تجعل المكان مقفلًا على من فيه من أطفال يلعبون بعد أن أُتيحت لهم هذه الحدائق أمام القصر طوال اليوم وجزءًا من الليل..

يتفرع من الميدان أمام القصر عدة شوارع يحاذي أحدهم سور القصر، إذا انحرف الخارج منه جهة اليمين دخل في شارع حديث عهد بالرصف يتقاطع في نهايته مع شارع بورسعيد الممتد، يعبره ليدخل منطقة الزاوية الحمراء، على ناصية هذا الشارع قبل التقاطع بيت كبير محاط بساحة واسعة تحتوي كميات كبيرة من التبن والحبوب يسميها

الجيران الشونة يملكها الحاج راشد أبو كمال الابن الأصغر لعدة أخوة يستحوذ كل منهم على شقة في هذا البيت، لكل منهم زوجته وأولاده، وضغائنه على إخوته، وطمعه في أبيه، اعتزلهم كمال في شقة ابتناها على جزء من سطح البيت بعد كان يسكن مع أبيه وأمه..

شب كمال وأبوه شيخ كبير، فكان شديد الحرص على إرضائه لشعوره الدائم بأن أباه لن يعيش له كثيرًا كما عاش لإخوته؛ الذين أصبح لا يربطهم بأبيهم سوى طلب المال بتحريض من زوجاتهم، خاصة بعد أن اشتد المرض بأبيهم، وبدا لهم أنه على أعتاب القبر، وكل منهم يريد أن يستحوذ على أكبر قدر من التركة، يبتعد كمال عن هذه الصغائر، فما زال أبوهم على قيد الحياة، فظن أن الزواج والأولاد أدوا بإخوته إلى الطمع في أبيهم، فقرر ألا يتزوج رغم إلحاح أبيه وأمه..

بعد وفاة أبيه خرج كمال من البيت الكبير تاركًا أمه لحزنها المُرّ على أبيه، وطمع أبنائها في تركته بعد أن تعرف على أحد زملاء الجامعة كان قد هاجر إلى القاهرة مع عائلته من مدينة السويس في أعقاب حرب ٦٧، واستقر معهم في منطقة الزاوية الحمراء بإحدى الشقق المؤجرة، واحتفظت العائلة بالشقة خالية بعد عودتهم إلى مدينتهم في أعقاب حرب ٧٣ تحسبًا لإقامة ابنهم فيها إذا التحق بالجامعة في القاهرة، كما

فعل كثير من أهل السويس في ذلك الوقت، أقام كمال معه مشاركًا إياه في مصاريف الإيجار والمعيشة..

تقع الشقة قريبًا من البيت الكبير وزميله مصطفى يسبقه بسنتين في كلية الزراعة على درجة من الثقافة وسعة الأفق، تدور بينهما المناقشات كل ليلة عن كل شيء بعد العشاء، وقبل ساعات المذاكرة، والتي لا تخلو من مناقشات أيضًا تخص بعض الدروس التي قد تغمض عن كمال، فيتولاها مصطفى بالشرح والتبسيط، كان خروج كمال من البيت لا يعني إهمال إخوته له بدافع من الأم، قسموا تركة أبيهم، واحتجزوا لكمال نصيبه الذي ارتضاه منهم، فأخذه مودعًا إياه في أحد البنوك بعد أن اقتنى سيارة بجزء من نصيبه لغرامه بركوب السيارات..

طرق كمال الباب لتفتح له أمه، يمضي صوب حجرته السابقة مسرعًا، تتبعه الأم في لهفة:

- فيما جئت يا بني هذا الصباح مرهقًا، وكأنك لم تنم؟! وما تلك الجروح في وجهك؟ وما هذه الملابس الملطخة التي ترتديها؟ أين كنت؟ أهناك من يتبعك؟

لم يردّ عليها حتى استوى متهالكًا على أحد مقاعد غرفته، أقبلت عليه تتحسسه، وتتفقد جروحه وهي تتمتم:

- من فعل بك هذا يا ولدي، سأعد لك حمامًا دافئًا، وشيئًا من اللبن والسكر..

وكأنها قرأت أفكاره، انتفض مسرعًا نحو الحمام، انغمس في المياه الدافئة، خرج صوب المنضدة التي وجد فوقها كوبًا من اللبن الساخن غمرت فيه أمه كثيراً من السكر، أفرغه في جوفه، ثم استأذنها وهو يتجه نحو السرير، لم يشعر إلا بانخماد رأسه في الوسادة الناعمة ليبتلعه النوم في جوفه العميق..

أفاق كمال بعد العصر ينظر حوله وكأنه بعث من قبر، كشف عن نفسه الغطاء الذي بسطته عليه أمه عندما غط في نومه، خرج من غرفته يبحث عنها في أنحاء الشقة، ينادي عليها، عندما وجدها قبَّلها وهو يستفسر:

- هل سأل عني أحد؟

قالت:

- نعم يا ولدي، مصطفى سأل عنك، سأعد لك الغداء..

حل الليل فغادر كمال إلى مسكنه ليلتقي بصديقه مصطفى الذي أخبره بمن سألت عنه، استفسره عنها فقال:

- أخبرتني أنها قريبتك..

فتش كمال في ذهنه عن من تعرف مسكنه من قريباته، ولكنه لم يوفق إلى اسم، بينما انخرط مع مصطفى في استعراض ما حدث له ليلة أمس سمعا طرقًا خفيفًا على الباب، قام مصطفى إلى الباب فإذا هي قد جاءت مرة أخرى، تحمل بين يديها طفلًا رضيعًا، فلم يسألها عن شيء، ولكنه استدار نحو كمال قائلاً:

- ها هي قد جاءتك مرة أخرى، وسوف أخرج لقضاء بعض المقابلات بالخارج وشراء بعض الحاجات، تركه مصطفى وانصرف..

توجه كمال نحو الباب في دهشة، فلما رأته بادرته قائلة:

- أهو أنت؟

جمد في مكانه، وهو لا يصدق عينيه، فركهما مرة أخرى ثم صار يحملق بالواقفة على الباب، استدركت عليه وهي تقول:

- هل ينفع الكلام على الباب؟

أفاق من تأملاته مشيرًا إليها بالدخول:

- تفضلي..

سألها:

- هل أنت؟
- نعم أنا..

دار حولها متسائلاً:

- ما زلت حية؟
- ما زلت حية..
- وهذا الطفل الصغير؟
- وهذا الطفل الصغير..
- هل من جروح؟
- بعض الكدمات والخدوش البسيطة..
- وماذا عن الدم على زجاج السيارة؟
- ربما تخيلت ذلك في الظلام..
- وأنت؟ من أنت؟
- أنا عروس البحر، النداهة..
- عروس البر، من أين جئتِ؟ ومن ألقى بكِ أمامي؟ منك لله، قضيت بسببك ليلة سوداء..
- وبعدها ليلة بيضاء أو أي لون تحب..

سكتت برهة عندما نظر إليها مستغربًا، واصلت:

- عندما سقطت على الأرض أنا والطفل اصطحبني بعض الشهود إلى القسم القريب لتحرير محضر بما حدث..
- خمنت ذلك..

شقراء في مقتبل العمر، ذات قوام ممشوق، ترتدي فستانًا من الجوخ الأزرق، به دوائر دقيقة صفراء، تنسدل خصلات شعرها الأصفر الفاقع فوق ياقة عريضة تحيط بجانبي عنقها تاركة فراغًا يشي بصدر مرمري، يرسم لوحة من كلاسيكيات عصر النهضة في أوروبا..

رمقها كمال وهي تتحدث كما لو كان صوتها يأتي من بعيد، ربما ذاب في عطرها، وطرواة ألفاظها التي سرت في روحه، ونفرت في عروقه كبركان اقترب نحوها، فقال:

- جئت لأبرئ ذمتك أمام القانون..
- إذن فأنا مدين لك بنجاتي من براثن الشرطة، جميل يعني..
- ألا ترى أني بين يديك تفعل بي ما تشاء؟

نحت الرضيع جانبًا، ثم قامت لتخلع فستانها الثقيل رغم البرد الساري في المكان، اقترب منها ممسكًا يديها، وهو يستنكر:

- ماذا ستفعلين أيضًا؟

انتابته رعدة عندما شعر بدفء يديها، فلم تلبث أن انهارت على صدره، لم يشعر كلاهما بما حدث بعد ذلك سوى أن الطفل انتفض باكيًا، ولكنه سكت بعد أن مدت يدها لتحكم غطاءه، فربما قرصه البرد..

أفاقا على طرقات الباب، فتحه كمال ليجد مصطفى أمامه، وكأنه لم يعرفه قبل ذلك أو تذكره فجأة، ابتدره مصطفى وهو يبتسم:

- هل أصبحت غير مرغوب؟

في ذهول رد كمال:

- ادخل يا مصطفى..

أعدت نفسها بسرعة للخروج بعد أن حملت طفلها، وانسلت من بينهما خارجة، وهي تنبه عليه:

- سأنتظرك الأسبوع القادم أمام النيابة لإنهاء المحضر..

خلا المكان؛ فنظر كل منهما إلى الآخر، وكأن كلامًا قد انحشر في حلقيهما إلا كلمات مقتضبة قالها كمال:

- لا بد أن أنام حالاً، فلدي محاضرات في الصباح الباكر..

رد مصطفى:

- تصبح على خير..

اعتادا استعراض أحداث اليوم على مائدة العشاء، خيم عليهما السكون في بداية تناول العشاء، رأى مصطفى أن يبدأ هو بكسر السكون الذي ران عليهما، فلم يعتادا على ذلك، ابتدره قائلاً:

- لم تخبرني عما حدث لك في اليومين الماضيين كما تعودنا، هل أصبح كل منا معزولاً عن الآخر؟ وهل دخل شخص ما بيننا؟!

وكأن كمال قد فاجأته الجملة الأخيرة فأجاب:

- البداية كانت في الليلة قبل الماضية..

فرغا من عشائهما، ومكثا مكانهما عندما استغرقهما النقاش، فنبهه مصطفى قائلاً:

- لا زلت أقول أدخلت بيننا من لا تعرف عنه شيئًا..
- عرفت..
- أسرار؟
- ليس بيننا أسرار، ونقاشنا لا يقوم إلا على الصراحة..
- إذن..

- انسجام أبو الورد، متزوجة ولديها طفل لعلك رأيته، تقيم معها أم زوجها لأن زوجها يعمل في إحدى دول البترول العربية، تركها حاملاً في الطفل الذي معها، وعدها بزيارتهم في الصيف، ولكنه اعتذر بعد ذلك..
- الانفتاح، وما أدراك ما الانفتاح!
- دخلنا في السياسة؟
- لا يتوقف الانفتاح على مجال دون آخر يا عزيزي كمال..
- كيف؟
- انفتح زوجها على دول البترول، وانفتحت هي عليك، وانفتح بيتنا لها، اعذرني يا كمال لا ألوم عليك، ولا عليها، ولا حتى على زوجها، ولكني تعودت أن أفكر معك بصوت عالٍ..

سكت كمال ولم يحر جوابًا، ولكنه تساءل وكأنه يتكلم مع نفسه:

- وماذا بعد ذلك؟ أكمل..
- بعد الانفتاح لا تأتي النهاية إلا بكارثة، إذا كان هناك نهاية..
- دائمًا متشائم..
- هل أبتعد..؟
- كل الاحتمالات مطروحة..

أدرك كمال أن نقاش الليلة له نهاية، فلا ينتهي بينهما النقاش عادة إلا تأجيلاً من أجل المذاكرة، لملما بقايا الطعام، وأعد أحدهما الشاي، وهرع كل منهما إلى مكتبه..

انسلت الأيام، ولم يقر لكمال قرار، ولكنه الحادث اللعين، كيف يتخلص منها وهو سيلتقي بها، إنها صاحبة القرار، وليس هو، فما هو إلا تابع لها حتى تنتهي الإجراءات..

أصبح مبكرًا إلى النيابة في الأسبوع التالي كما نبهته، وجدها في انتظاره وحدها، ابتسمت فألقى إليها تحية الصباح، ثم استند إلى الحائط فبادرته:

- جئت لتستند إلى الحائط؟
- طبعًا لا، ولكني أنتظر الأوامر..
- أوامر؟

كتمت ضحكة كادت تشرق بها شفتاها الورديتان، فقال:

- أنا المذنب، وأنت الجلاد، وليس لي إلا الانتظار..
- أنت تبالغ، الأمر أقل من ذلك بكثير، والجلاد جاء ليتنازل للمذنب..
- وأنا بين يديك..

أخذت بيده في رفق، ودخلت مبنى النيابة تسأل عن المحضر، فعلمت أنه لم يأتِ بعدُ من القسم المختص، وعليها الحضور في الأسبوع القادم، نظر إليها وكأنه يستأذن للخروج، رمقته بنظرة طويلة وهي بالباب، فرجع إليها وهي لا زالت تنظر إليه فسألها:

- هل لديك ما يشغلك اليوم؟
- ولا الغد ولا بعد الغد، أنت تعلم أنني أعمل زوجة، وأنا الآن موقوفة عن العمل لأجل غير مسمى..
- إذن فأنا لم أفطر بعد، هل..
- كما تريد..

قرر كمال اصطحابها في رحلة خلوية نحو التخوم الصحراوية، وهناك قضيا النهار بعد أن اصطحبا معهما بعض الشطائر، شرعا يأكلاها حينما شعرا بالجوع والتعب، وبدا لهما الاسترخاء والخمول بعد الأكل والامتلاء، فبعد أن كاد ينتهي من إحدى الشطائر، فدفع القطعة الأخيرة منها نحو فمه لتختطفها في خفة فاستشاط منها غضبًا، ولكنها اختفت من أمامه، فراح يبحث عنها في المكان المحيط به خلف الصخور، وما أن اقترب من إحداها خرجت تعدو أمامه، وهو في أثرها على أمل استرجاع ما أخذته منه، ازداد تصميمًا في اللحاق بها حتى اقترب منها، تعثرت

قدماها فوق أحد الكثبان الرملية فسقطت، وعندما دنا منها ارتطم بها ساقطًا فوقها؛ فصرخت ضاحكة وهي تدعي الألم، وضع يده فوق فمها ليخفف من صراخها فقضمت يده بأطراف أسنانها، فانخرط هو أيضًا في الضحك، وقد نسي ما اختطفته منه، استشعرا سعادة في جذب، وتملص فوق الرمال، وقد انشغلت الدنيا عن مناوشاتهما الضاحكة بضجيج البشر، أمسك بيدها التي اختطفت قطعة الشطيرة قائلاً:

- سأكمل بها بدلاً مما اختطفتيه، جذبتها بسرعة وهي تتهمه بالتهور والجنون، وتشيح عنه بوجهها وهي لا زالت مستلقية فوق الرمال الدافئة، سقط برأسه فجأة فوق صدرها فاستكانت، وما لبث يطوف به لثمًا وتقبيلاً، أصابها الخدر بعض الشيء، استسلمت له وقد ارتفع نحو رأسها، اختلطت أنفاسهما وهو يقترب من فمها فشرب وشربت حتى الثمالة..

إغفاءة منهما، وغفلة من الزمن، مالت الشمس، وتوسطت السماء؛ فانهالت عليهما بأشعتها الحانية، فألهبت نارًا قد اشتعلت، أفاقت هي وكأنها عادت من العالم الآخر، هزت رأسه التي استكانت فوق صدرها، وقد ارتاحت أذنه لإيقاع طرقات قلبها الحائرة، نظر حوله في استغراب، انتفض واقفًا، وقد مد إليها يده التي أمسكت بها واستقامت واقفة بين يديه التي طوقتا خصرها، فقالت:

- لقد انتصف النهار..
- هل لديك شيء؟
- لقد تركت الطفل في الحضانة، ولا أريد أن أتأخر عليه..
- إذن فلنرحل..

قالها وهو يصحبها نحو السيارة، وعند اقترابهما على مسافة من منزلها استأذنت في النزول، وهي تذكره بميعاد الأسبوع القادم في نفس المكان، فقال:

- سوف لا أراك كل هذه المدة؟!
- لست وحدك في الشقة..
- بسيطة مصطفى يسافر لأهله آخر الأسبوع..
- سأحاول..
- أكيد..
- تعرف أنني أعيش مع أمه، وأخشى أن تشك في شيء..
- تشك عندما يطول غيابك، ولكننا لا نمكث معًا لوقت طويل..

سكتت وكأنها توافق على ما يقول، وهي تودعه بإشارة من يدها..

تعددت اللقاءات بين كمال وانسجام، وتعددت النقاشات بينه وبين مصطفى بما كانت تموج به الجامعات المصرية في هذا الوقت من انتشار

جماعات التطرف الديني، ودخوله بقوة في خضم السياسة برعاية رسمية من الدولة؛ بحجة الحد من انتشار التيارات اليسارية المعارضة التي اتهمت بالإلحاد، خاصة بعد تحول الدولة من الاتجاه الاشتراكي مع الاتحاد السوفيتي إلى الاتجاه الرأسمالي مع الولايات المتحدة..

وتعطش الناس إلى رغد العيش مع الدعة والخمول، وانتعشت أحلام الثراء المفاجئ بلا أدنى تعب، فارتفعت الأسعار، وهجرت الأعمال، وعلى رأسها الزراعة؛ فترك الفلاحون الأرض، بل جرفوها ليبيعوا ترابها، وترك العمال المصانع، وراحوا يقفون أيامًا وليالي على أبواب سفارات دول البترول، فكثرت مكاتب إلحاق العمالة بالخارج والهجرة، وباع الناس أرضهم وماشيتهم وديارهم، وتركوا وظائفهم كي يدفعوا ما تطلبه هذه المكاتب من أموال طائلة للحصول على عقد عمل في إحدى دول الأحلام، فوقع الكثيرون منهم في براثن النصب والاحتيال الذي كانوا مهيئين له، وخسر الكثير منهم الأملاك، والوظائف الثابتة..

انتشر الثراء الفاحش لدى طوائف معينة من المجتمع فنبتوا في المجتمع نبتًا شيطانيًّا لا أصل له، انتشر في المجتمع أصحاب المهن التي لم يكن لها دور كبير في المجتمع كعمال البناء، وجامعي القمامة، وتقدموا للزواج من الأسر المتعلمة، فتزوجوا الطبيبات والمهندسات، وانتشرت الرشوة، واختلطت قيم المجتمع ومبادئه الثابتة، فكان الملاذ في مظاهر الدين والتدين الزائف..

خرج المكفّرون والمشككون على الناس المتعطشين لهذا التدين الذي ظنوا أنه يكفر عنهم ما يقترفونه من تحصيل المال بسبب وبغير سبب ممن أسموا أنفسهم مشايخ بعد أن عفت عنهم الدولة، وأخرجتهم من غياهب السجون والمعتقلات، فراحوا يحرضون طلاب الجامعات على زملائهم الكفار والمارقين بالسنج، والجنازير، والأسلحة البيضاء، واللكمات الحديدية بعد تدريبهم وإعدادهم لذلك..

ولما انتهوا من تكفير المسلمين، استداروا للكفار المسيحيين، فالأمر أهون بالنسبة إلى شركاء الوطن، استحلوا أموالهم وممتلكاتهم، واستعانوا بالبلطجية والخارجين على القانون ممن استتابوا بعضهم فتم السطو على محلات الذهب وغيرها، وسقوط قتلى وجرحى..

احتقن المواطنون فيما بينهم بفعل الثروة المفاجئة، واختلال القيم والتكفير بالتدين الزائف ممن ادعوا المشيخة، وهم لم يقرءوا سوى عناوين بعض الكتب، ورغم ذلك نقل الناس -كبارًا وصغارًا- أزياء الشباب الأوروبي، وتسريحات الشعر، وأصبح السفر إلى أوروبا من أمنيات الشباب، وتنافس البنات مع الشباب في ذلك، فانهالوا على ما يقترفه الشباب الأوروبي من متع ولهو بغض النظر عن إتقان هذا الشباب لعمله..

كان غرض الدولة السياسي إهالة التراب على الفترة الناصرية الناجزة، وما اشتملت عليه من بناء وتأسيس، حتى نصر أكتوبر الذي هللت له الدولة كان من بناء وتأسيس الفترة الناصرية بدليل أن كل الذين خاضوا هذه الحرب كانوا من رجال هذه الفترة النابضة من حياة مصر، ودخلت الدولة بعد توقيع معاهدة الصلح، والتطبيع مع إسرائيل في صدام مع كافة طوائف المجتمع بمن فيهم المتطرفين الإسلاميين..

منطقة الزاوية الحمراء من مناطق مصر الشعبية الساخنة في ذلك الوقت، ففي جو اختلال القيم لا يستطيع الناس التمييز بين الصالح والطالح؛ خاصة إذا لم يكن لها أصل في المجتمع المصري المحافظ، فبدأ التقسيم والتمييز، فهذا مسلم، وذاك مسيحي، وهذا اشتراكي، وذلك يميني محافظ، ومن هنا انفجر الاحتقان المزمن في بيئة من بيئات الاحتكاك الكثيرة في مصر، عندما بدا للمسيحيين بناء كنيسة على قطعة أرض لهم، جاء من المسلمين من ينازعهم الحق في قطعة الأرض مع ثبوت ملكيتها للمسيحيين، عرض بعض المسلمين الأموال للحيلولة دون بناء الكنيسة، وتحول الخلاف إلى شجار أصاب السكان بالهلع..

في الأحياء غير الشعبية اتخذت هذه القضية منحًى آخر، فلم يقُمْ المسلمون في منطقة مصر الجديدة بالنزاع مع المسيحيين بخصوص بناء

الكنائس، ولكن انتهزوا فرصة الانفتاح على دول البترول بعد حرب أكتوبر والارتفاع المهول في أسعار البترول؛ فقام الأغنياء الجدد من هذه الدول بتسهيلات من أهل المنطقة ببناء مسجد مقابل كل كنيسة تُقام، ولم يكن الأمر دمويًّا كما جرى في منطقة الزاوية الحمراء الشعبية..

تجدد الشجار بعد بضعة أيام، وسقط البعض جرحى، ولم تتدخل الدولة بشرطتها، وكأن الخلاف وقع في الدول المجاورة، عند طلوع النهار ينتشر الصبية وأولاد الشوارع من حي إلى حي مروراً بالزاوية الحمراء، يرددون الشتائم والدعوات لحرق، وهدم بيوت المسيحيين الكفار، يقوم البعض منهم برسم علامات على بعض البيوت التي يقيم فيها مسيحيون، والدولة غارقة في الغرام والليالي الملاح مع الأصدقاء الجدد الذين سيغرقونا في بحور اللبن والعسل بدلاً من عدس وبصارة ومشّ الفترة الناصرية..

كأن سكوت الدولة هو الضوء الأخضر لالتهاب الفتنة فكثر البلطجية، ومثيرو الشغب واللصوص والمجرمون فاستشرى الحرق، والسحل، والقتل، وأحيط بالمسيحيين، وأملاكهم، ومخازنهم، ودكاكينهم، وأولادهم، ونسائهم، وأصبحوا فريسة سهلة للمجرمين واللصوص مع العصابات المتطرفة الذين يغلقون المحال والمنازل على من فيها، ثم يشعلون النار، وهرع بعض المسلمين إلى الكنائس لحمايتها، وهب آخرون يساعدون سيارات الإسعاف والإطفاء والبعض الآخر يمنع هذه العصابات من حرق بيوت المسيحيين التي تتجاور مع بيوت المسلمين حتى لا تحترق كل البيوت..

اندفع كمال بطبيعته في هذه الأحداث يدفعه الحماس مرة، والشحن الديني مرة أخرى تحت وطأة الشعارات الرنانة رغم نقاشات مصطفى العديدة معه عن جدوى هذا الدمار، ورفض الآخر بلا ذنب، ولم ينتهِ حماسه المدمر إلا عندما خرج ذات صباح ليعود مسرعًا على غير العادة، وقد غامت عيناه بالدموع، قابله مصطفى مستفسرًا عن سبب بكائه:

- ماتت انسجام، ماتت محترقة، كان بيتها بجوار أحد مخازن المسيحيين الكبيرة التي احترقت..

لم يُجبْه مصطفى إلا من تمتمات:

- لعلك تذكر ما قلته لك يومًا يا كمال.. إذا كانت نهاية فهي الكارثة، ولا شيء..

سكان العمارة

استيقظ سكان العمارة على صوت إطلاق النار والجلبة التي أحدثها نوباتجية المعسكر المجاور للعمارة عندما شاهدوا شخصين يتسلقان سور الخرابة الذي ينتهي عند الجانب الآخر من العمارة، وقد أوشكا على القفز في شرفة شقة الست أم حسن زوجة الحاج رزق اللبان التي تكتظ شقتها بالتحف والجواهر الثمينة، قام سكان العمارة عن بَكرة أبيهم من فوق سرائرهم في الحر القائظ، فظهر كثير منهم بالملابس الداخلية، لا زال صياح نوباتجية المعسكر:

- حرامي، حرامي..

اصطحب الرجال الأسلحة المنزلية الخفيفة مثل العصى والسكاكين، أما أبو عبده الصول بحرس الحدود – هكذا ينادونه – فقد اصطحب معه الكرباج السوداني ملفوفًا في يده اليمنى، انقلبت الحارة أيضًا لانزعاج سكان العمارة، وراحوا يتتبعون الأصوات، والإشارات هنا وهناك فلم يعثروا لهما على أثر، اجتمع سكان العمارة وشيخ الحارة وأولاده، وأهل الحارة، تشاوروا ثم انفض كل إلى بيته دون أن يظفروا بطائل..

اجتمع سكان العمارة في الليلة التالية، واتفقوا على إصلاح باب العمارة الحديدي، وإغلاقه تمامًا في المساء بتخصيص مفتاح لكل ساكن، إنها المرة الأولى التي تتعرض فيها العمارة للسرقة؛ خاصة تلك الشقق

التي يسكنها أصحاب الأعمال الحرة الذين كانوا أكثر ثراءً من باقي أصحاب الشقق العاملين في المصالح الحكومية الهامة والجيش..

ربما عبر سكان العمارة عن شعار هذه الفترة وهي اتحاد قوى الشعب العامل، فرغم تفاوت أعمالهم وتعليمهم، ودخولهم إلا أنهم كانوا متعاونين في كل أمورهم، فلا تأتي مناسبة إلا اجتمعوا لها؛ دخول رمضان والأعياد لا بُدَّ أن يتواجدوا كلهم في بيت واحد، كعك العيد تخرج طاولاته وصاجاته من بيت واحد بعد أن تجتمع كل الزوجات لإنجاز هذه المهمة، يجتمعون كل شهر لدى أبو عبده الصول الذي يقيم حلقة ذكر كل شهر، ينتظرها أطفال العمارة للفرجة وتناول الفتة وقمر الدين بالقرفة تقدمه لهم زوجته الست أم عبده..

يجتمعون لحفلات أم كلثوم بإعداد المسليات من اللب، والفول السوداني، والقصب، والبرتقال في الشتاء، ولا يخل الأمر من قطعة من الحشيش، يجتمعون أيضًا عندما تلد إحداهن، ويجتمعون مرة أخرى في السبوع، يقتسمون الفاكهة إذا رآها طفل شقة من الشقق، حتى الأطفال يجتمعون فوق سطح العمارة للعب عندما تخف حرارة الشمس بعد صلاة العصر، ولا يلعبون في الحارة..

في أعياد الثورة يصعد الأطفال إلى سطح العمارة يتلقفون ما تلقيه عليهم طائرات الهيليكوبتر من الأعلام وأكياس الحلوى، ومن كانوا في الجيش من السكان يوزعون الكثير من تذاكر السينما والمسرح والاستاد ونوادي ضباط القوات المسلحة لحضور عروض الاحتفال بأعياد الثورة..

يجتمعون في المساء أمام التليفزيون فوق سطح العمارة يشاهدون احتفالات التليفزيون بأعياد الثورة، ورؤية مباريات كرة القدم التي تقام بهذه المناسبة..

ارتبط سكان العمارة مع بعض سكان الحارة والحارات المجاورة التي كانت تطل كلها على الشارع غير المرصوف يشرف من جهته الشرقية على مزارع واسعة، وقنوات للري كانت تتحول في المساء إلى أكوام من الظلام والرهبة، كثيرًا ما كان سكان العمارة يتداولون أحاديث عما يصادفه الناس في هذه المزارع من جثث في أجولة أو ملقاة على الطريق، كان أغلبها شائعات لإرهاب الناس، ومنها ما كان يجعل السكان يهرولون نحو المدارس في آخر الشارع لجلب أبنائهم الذين قيل عنهم إن سيارات الإسعاف تنقلهم إلى المستشفيات بسبب الوجبات المسمومة، أو أن هناك على باب المدارس عصابات تخطف الأطفال..

في صف البيوت المقابل للعمارة على الجهة اليمنى بيت فؤاد المسيحي برتبة رقيب في سلاح الطيران؛ يقيم مع أمه بعد وفاة أبيه، تزوج منذ

سنتين من تريزا التي كانت تقوم بحياكة ملابس البنات والسيدات من سكان العمارة، وكان سكان العمارة يعجبون لزوجها فؤاد الذي اعتاد أن يضع المذياع فوق سطح بيتهم في الثامنة مساء السبت قبل نشرة الأخبار ليستمع إلى قرآن السهرة بصوت الشيخ عبد الباسط على إذاعة (البرنامج العام)..

في الحارة المجاورة كان الشيخ محمد موسى ذو اللحية العريضة، والقامة القصيرة، والوجه الودود يؤمهم في صلاة المسجد، ويخطب فيهم يوم الجمعة، يستمتعون بأحاديثه القيمة في غير أوقات الصلاة، وقصصه الوعظية المؤثرة، وفي العيدين يفترشون الحصير في الساحة الواسعة أمام الحارة للصلاة، وكان الشيخ موظفًا في الحكومة وأخوه من معتقلي الإخوان..

صباح أحد أيام أواخر الربيع سمع نساء العمارة أصوات طلقات ظنوا أنها تنطلق من المعسكر القريب، لاحظت بعضهن توقف برامج الإذاعة، والتقطت بعض البيانات العسكرية التي تشير إلى قيام الحرب على الحدود، كان أبرز ما في البيانات العسكرية سقوط متوالٍ لطائرات العدو، ومضى الوقت في هرج ومرج، حتى ضربت صفارات الإنذار بعد العصر ليلجأ سكان العمارة إلى الدور السفلي مع أطفالهم، اختفى أغلب الرجال هذه الليلة الليلاء حالكة الظلام مع صراخ رجال الدفاع المدني بالتأكيد على الهبوط من الأدوار العليا، وإطفاء الأنوار، وعدم إشعال السجائر..

ظهر بعض الرجال صباح اليوم التالي عندما جاءوا محذرين زوجاتهم وأولادهم بمغادرة القاهرة إلى الأرياف حتى يكونوا بعيدًا عن ما يمكن أن يحدث في القاهرة، وكانوا ممن يعملون في الجيش، والأمن العام، وكلفوا بمهام خارج القاهرة ولا يعرفون متى سيعودون، وقد لا يعودون..

في غضون يومين أو ثلاثة استوعب الناس ما حدث رغم تضارب الأنباء، خرج القائد يعلن القول الفصل؛ إنها الهزيمة، وهو يتحمل مسئولية ما حدث، وأعلن تنحيه عن هذه المسئولية، لم ينتظر الناس حتى الصباح، "فخير البر عاجله" كما يقولون في أمثالهم الشعبية، ذهبوا إلى القائد بليل، أحاطوا بمنزله:

- إلى أين أنت ذاهب؟
- هل تتركنا هكذا؟
- هل هذه النهاية؟
- هذه ليست نهاية؟
- نحن نرفض هذه النهاية، ونرفض الهزيمة..
- سنحارب، سنحارب..
- سنقاتل كما قاتلنا منذ آلاف السنين..
- عد إلى مكانك..

- القرار قرارنا..
- وهذا هو القرار..

بسرعة تجاوز الناس ما حدث؛ فقد كانوا أرقى كثيرًا فيما قاموا به من الذين يتكلمون باسمهم حتى اليوم، من هؤلاء الذين لا زلوا يولولون كالثكالى، ويقيمون المآتم، ويهيلون التراب على كل من أراد دفع الناس إلى الأمام..

التأم شمل سكان العمارة مرة أخرى، وعاد من غاب، ولكن خيم الوجوم على الجميع، لم يعد هناك ما يجتمعون من أجله، فلا حفلات، ولا مباريات، وحتى المناسبات الاجتماعية والأعياد أصبحت اختصارًا واختزالاً، زاد الانفراد، وأغلقت الأبواب دون الأبواب، أصبحوا يتندرون برؤية بعضهم البعض، فهل انفرط العقد، وتفرق الجمع، واختص كل منهم بشئونه دون الآخر، وانهمك كل في همه دون الآخرين؟

- هل كانت الثقة مطلقة فانهارت؟
- هل كانت الأمور على ما يرام، فلم يكن هناك مكان للتوقعات السلبية؟
- هل مارسنا الحرب لأول مرة، فلم نفهم بعد أن للحرب وجهين؛ النصر، والهزيمة، وليس وجهًا واحدًا؟
- ألم نمارس الحرب آلاف المرات بهذا المفهوم؟
- أم كنا في سذاجة الأطفال، لا نتصور شرًّا ولا موتًا؟

- أم هذه طبيعتنا في جَلْد الذات سواء عند الفرح أو الحزن؟

ورغمًا عنهم ألقى الحدث بظلاله على سكان العمارة، هربت ناهد العروس المخطوبة، ولم يعثروا لها على أثر، أما أبو عوض أغنى أغنياء العمارة فقد تعرف على إحدى بنات المدارس الثانوية التي احترفت الرقص في إحدى الحانات الذي دأب أخيرًا على ارتيادها، كانت تطمح إلى الشهرة فتركت الدراسة، وتفرغت للرقص، فاعتبرها أبو عوض قضيته، وتفرغ لها..

أفاق سكان العمارة ذات صباح على صراخ وعويل وضرب وشتائم تخرج كلها من شقة أبي عوض، دخلوا عليه، صارت الشقة ذات التحف النادرة حطامًا، تنكمش زوجته في زاوية الردهة البعيدة، تهدل شعرها وهي تبكي، وتكوم الأولاد في الغرفة المطلة على الشارع في رعب ووجوم..

هدير الذكريات

أراني عصي الذكريات..

ألملمها.. أرتقها..

وأرتق الأحلام..

تتناثر فوق أيامي..

تسير في الطرقات..

تسبق الخطوات..

تقفز فوق الأسوار..

تطرق الأبواب..

تمطر في الشتاء..

وتلهبها شمس الصيف..

تعلق فوق حوائط رأسي..

تطرقه في ثبات..

تشرق في الظلام..

أيامي.. وأحلامي..

والذكريات..

في غرفة الإنعاش..

تحتضر؟

يرتعش نبضها فوق الشاشات..

ماتت قبل الإنعاش؟

انتعشت، وعاشت؟

لا أتذكر..

الزمان..

بعد شهرين من اللقاء الأخير..

كانت نسمات الخريف المنعشة تداعب حرارة الصيف الرتيبة..

أزف الرحيل إذن..

ولا شيء سوى خمود جمرات ملتهبة..

تثيرها عواصف الزمهرير في الشتاء، وهي ترتدي سترة من القطيفة السوداء، ذات ياقة عريضة، تريح فوقها خصلات شعرها الكستنائي..

قسمات الوجه الشاحبة توحي بالاستسلام لطرقات القدر، ومع ذلك فقد بدا مشرقًا وسط الخلفية الداكنة..

نفس الهدوء..

نفس الرائحة.. التي كانت تأتيه بها حتى لو أمطرت الدنيا، وأرعدت..

فالميعاد مقدس..

واللقاء مقدس..

وهو..

يقف في الشرفة يرقب نهاية الشارع الطويل؛ حيث كانت تظهر فجأة كعرائس الأساطير الإغريقة، تحمل معطفها، أو سترتها فوق حقيبة يدها، وكأنها هجرت كل الدنيا لتلجأ إليه..

يتوسمها الآن في كل فتاة عابرة.. يحدق بلا أمل..

فعند اللقاء.. يسعى كلاهما إلى السعادة سعيًا..

تلك السعادة ذات البهجتين..

بهجة تنتهي بانتهاء اللقاء، وما يجري خلاله من مناجاة، وحوار، أو عبث، وشجار.. وأخرى لا تنتهي، ولا يريدا لها ذلك..

فكلاهما يخاف على الآخر من النسيان والفتور.. الذي ينشأ على البعد أو انخماد الشوق..

المكان..

نفس المكان.. نهاية مترو عبد العزيز..

الشارع المرصوف، يعترضه الشارع الرملي..

على ناصيته دكان صغير يبيع نباتات الزينة..

تتصدرها نباتات الصبار الشوكية..

هل هناك علاقة بين الصبر والشوك؟

ثم..

ثم البقال، والخضري، واللبان..؟

كنا نبتاع منهم في رواحنا إلى المنزل عندما نحتاج بعض الأشياء..

ثم..

ثم البيت والفراغ يجيب الخطوات الملهوفة..

خرج الجيران يستطلعون الخبر:

- نعم، كانت هنا..

- ولكنها الآن هناك..

- لا نعرف العنوان، أو..

ذهبت بلا عنوان..

هل كان اللقاء الأخير حقًّا بعد فراق طال؟!

وهل كانت تحس أنه سيكون كذلك؟

بلا شعور تخللت أصابعها أصابعه..

اعتصرتهم كرحيق..

تعرف غرامه بذلك..

تعودت إرضاءه..

قال لها ذات مساء:

- قرأت رأيًا في الحب يفيد أنه إذا اشتعل إلى الما لا نهاية أصبح جحيمًا لا يطاق..

فاعتلى وجهها غضبة ارتعشت معها شفتاها:

- لا تحفل كثيرًا بما تقرأ في ذلك، فالحب المحسوس يختلف عن الحب المكتوب، ولكل أن يكتب في الحب ما شاء، ولكن الحب هو الحب..

أحنى رأسه منهزمًا، وهي تشقشق كعصفور في قفص فضي فوق سرير ناعس بين اليقظة والنوم والأحلام..

كان الحب قدسها المقدس، فلا تعترف بما يردده البعض من أن الحب ينتهي ويتعثر، كما يعتريه النقص والزيادة.. والعطف والمودة هما اللذان يحميان تلك العلاقة، فقد يحب الإنسان من يعطف عليه، ولكنه لا يعطف على من يحب..

لقد ابتدعت كل هذا الحب، ومنحته إيّاه، وهي لا تعرف إلى أي مدى يسير بها، وما هي حدوده..

كانت تسخر من كل تعبيرات الحب، وممن يتغنون به، فتنظر إليهم على أنهم لا يحبون، ولا سبق لهم أن عاشوه، فكان الحب في نظرها الكيان من الجوانح، والعطاء من الجوارح، أو قل على هذا أنها كانت الحب ذاته، وإلا فما هو؟!

لقد ملأ الحب جوانب نفسها وقلبها، وملك عليها حدود عقلها، فأصبح لا يتطرق إليه شائبة من شك..

ظنت يومًا أن مقاليد حياتها لن تفلت منها ما عاشت؛ مهما كان الشخص الذي ستقترن به، وتحمل اسمه، وأبناءه..

فلما عاشت معه الحب تضاءل هذا الاعتقاد، كما تضاءلت أمامها أي تضحية، فكيف حدث هذا؟!

وهو..

قد احتواها في قلبه، وفي كيانه، تسبح واجمة، مسحورة، من أين جاء هذا الحب؟!

وفي أي مكان من السماء أو الأرض كان؟!

أكان يجري في دمائها يومًا وهي لا تدري؟!

قالت له مُحذّرة:

- إياك أن تقبّلني مرة أخرى دون أن أدري، فأنا لا أوافقك رأيك في انتزاع القبلة، كدت أسقط بين يديك دون أن أتأهب لها..

- كنت أريد أن أتأكد من شيء..

- ومما تأكدت؟

- أنها العذراء..

ابتسمت وهو يشير إلى النادل مؤذنًا بالانصراف وسط عشرات الموائد العامرة بأحد المنتديات الليلية؛ وهي تثرثر كعادتها بنبرات تهز أوتار نفسه، وصوت منغم حزين، ولكنه يشي بالمرح..

ترتجف بين يديه وقد أحاطت بخصرها الذي منطقته بحزام معطفها الأسود؛ مجتازين الشوارع المقفرة من المارة، والصامتة إلا من هزيم الرعد، وطرقات المطر، وهدير السيارات التي تفر من الطقس القارس.. تبرق منها الآمال، ويتوه منها اليأس خلف الأشجار المنكسة..

- لا أريد أن أعود إلى البيت الآن..

يلتفت في تيه حوله لكل رجل يمر:

- كيف يعيش هؤلاء بدون هذا الحب؟!

- ومن عساهم يعرفون من فتيات؟!

ويعجب في نفسه مُلِحًّا في السؤال:

- كيف خلقها الله تعالى بين البشر؟!

لقد كانت جميلة في صفاء وهدوء..

فعندما يراها الإنسان يعرف وجهها..

وجوه تختلط فيها الملامح وتتشكل كل حين..

تشرق بالابتسام في قمة اليأس، وقد تغرق في الضحك؛ فإن لم يكن هناك حديث تتسلى به أو مناقشة تثرثر من خلالها تفرست في وجوه من حولها، وجعلت تنتقي منها موضوعات للبحث والمناقشة أو الضحك والسخرية.. فإذا ما خلا المكان الذي تجلس فيه؛ تأملت نفسها، وأغرقت في الضحك..

عبوس متشائمة..

رقيقة متألمة..

حزينة باسمة..

حسنة الفراسة..

ظاهرة الذكاء في أمور جنسها وما يصله بالجنس الآخر..

تغلب أنوثتها جدها وفكرها..

تضـيق بـالتفكير العميـق الـذي يقـوم عـادة علـى الـربط بـين الأسـباب والمسببات، فتفكيرها عادة من النوع ذي الفواصل الحادة، فكان ضحيتها..

لا تتحين الفرصة لشيء، ولا تتحينها لتظهر بوجه معين..

فقد تعبس في وجه من يضحك فجأة حتى ليتوقف عن الضحك خاذلاً..

وتضج بالضحك في وجه من يزف إليها خبرًا غير سارّ..

تلهو بالصدق حتى ليلهيها عن ذاتها وتفكيرها..

فهـي تلقـي بـه بـلا حـرص أو اسـتغراب، لا تتفـنن الخبـث، ولا تختلـق الكذب إلا فيما يتصل بطابعها الأنوثي البحت..

تتكلم عن جنسها كما تتكلم عن نفسها تمامًا..

فينشرح صدرها عندما يمتدح جنسها..

وعندما يذم تضيق نـافرة، تنحـاز لـه بسـبب وبغيـر سـبب، حتـى ليظن السامع أنها صاحبة قضية، وهي محاميها المتفرد، والشـاهد العـدل؛ حتـى إنه ليضن بها على التنظيمات النسائية..

من هي؟

أشرقت الحياة عندما عرفته، أحبته بكل كيانها، وجدت فيه الملاذ لعذابها في الحياة، كانت أختها هي الملاذ قبل أن تتركها من أجل السفر وتبتعد عنها، لا تكاد المراسلات بينهما تشفي غليلها، وعندما عادت شقيقتها انقضت السعادة التي ألقاها القدر في طريقها، تعود مرة أخرى إلى أختها، تنضوى تحت جناحها، وتنصرف عن ذلك الذي أحبته، أو هكذا تعتقد، ظنت أنها تعوضها عن كل حب، لم يكن حُبًّا بقدر ما هو ملاذ وراحة وطمأنينة، مع أنه ود لو كان لها طوال عمره، ربما كانت تحت تأثير الجوع العاطفي الذي تعودت أن تطفئه ممن لا يتغير، ولا ترضى بسواه إلا في أصعب الظروف..

يتميز سلوكها في الحياة "بالغيرية"، أو "تقديس الغير" -على العكس من تقديس الذات- يصفه النفسانيون تحت الشعور العام بالتبرير الكاذب أو المزاعم العصبية، فهي بحكم تربيتها في الأسرة -كأصغر الأعضاء- مصبًّا زاخرًا لكل التيارات والتفاعلات التي يموج بها جو الأسرة، وهدفًا للإيحاء الذي لا يسعفه تفكير، أو شيئًا من النقد والمقارنة ما يجعل من ذهنها ذلك النسيج المشتت الذي ما أن يخرج للحياة حتى يصاب بالتمزق والاهتراء..

ولو توقف الأمر على ذلك لأمكن التدارك بأي الوسائل، ولكن أن تمارس ضدها خطة احتواء من شقيقتها التي تكبرها مباشرة، ملأ ذلك الفراغ العاطفي والتربوي الذي تركه موت الأب ومرض الأم العصابي، فكان من الصغيرة شعور الانضواء والركون، لا سيما مع دخول العامل الاقتصادي الذي يفرضه احتياج فتاة صغيرة في هذه السن للظهور بين أترابها، وإكمال التعليم الذي يرتبط في ذهنها بالخوف من المستقبل..

وانتقال السلطة في البيت من الأب إلى الأم والإخوة الذين يسبقونها في العمر لم يترك لها أي فرصة لتربية نفسها على تحمل المسئولية، وأيضًا تلقيها الأمر والقرار ممن هم أكبر منها دون استشارة، علاوة على قصة الحب التي عاشتها أختها الكبرى، وانتهت بالزواج، ثم خيبة أملها في الزوج الذي أحبته، وضحت من أجله ليبدو لها الحب كجثة هامدة في تابوت الزواج العتيق..

فهرس

الصفحة

عودة الحاكم بأمر الله: ٥

أهازيج حزبية: ٤٥

الرغبة: ٥١

القلعة: ٥٧

السأم: ٧٩

الفشل: ٨٥

السوق: ٨٩

هروب: ٩٧

سكان العمارة: ١٢٣

هدير الذكريات: ١٣٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

الملاح ، محمد.
عودة الحاكم بأمر الله، مجموعة قصصية / محمد الملاح – ط
١.- الجيزة : اطلس للنشر والانتاج الاعلامى، ٢٠١٤ .
١٥٢ ص ،٢٠ سم
تدمك: ٩-٢٠٨-٣٩٩-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص العربية القصيرة.
٢- القصص التاريخية.
أ - العنوان
٨١٣,٠١